
روايات
مصرية
للجيب
٥
فارس الأندلس
الهاربة
د. نبيل فاروق
Abo Badr

من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضى والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

١ ـ تحت المطر ..

بدأ ذلك الصباح على نحو غير مألوف ، بالنسبة لهذه الفترة من العام ، فى مملكة (غرناطة) ، آخر معاقل العرب فى (الأندلس) ، فقد تجمّعت السحب وتكاثفت ، قبيل الفجر بقليل ، وحجبت أشعة الشمس عند الشروق ، ثم لم تلبث الأمطار أن انهمرت فى غزارة ، وراحت تروى ربوع (غرناطة) وحقولها الخضراء ، وتصنع أنهارًا صغيرة ، تجرى من التباب إلى الوديان ، فتتضافر وتمتزج ، لتصنع بركًا وبحيرات ، لا تلبث الأرض أن تمتصّها ، وتروى بها الأعشاب والأشجار الباسقة اليانعة ..

وهناك .. فى ذلك المعسكر الصغير ، خارج مدينة (غرناطة) ، أزاح معلم السلاح (مهاب) ساتر الخيمة الكبيرة فى حرص ، وتطلّع إلى المطر المنهمر ، وهو يتمتم فى شىء من الضيق :

ـ يبدو أن الأمطار ستستمر لفترة طويلة .. يا للخسارة !

هزّ الشيخ الحكيم رأسه فى بطء ، وهو يقول :

ـ لا تغضب من الطبيعة يا ولدى ، فهى صنيعة الخالق عزّ وجلّ ، وهو أحكم بخلقه وأعدل .

غمغم (مهاب) فى حرج :
ـ إننى لم أغضب يا سيِّدى ، ولكن ..
توقَّف عن إتمام عبارته ، وبدا مرتبكًا بعض الشىء ، فسأله الشيخ فى هدوء ووقار :
ـ ولكن ماذا يا (مهاب) ؟
تضرَّج وجه (مهاب) بحمرة خفيفة ، أخفتها لحيته الكثَّة ، ومطَّ شفتيه فى حرج وارتباك ، فقهقه (فارس) ضاحكًا ، وهو يقول :
ـ ولكن (مهاب) جائع يا سيِّدى .
ابتسم الشيخ مغمغمًا :
ـ آه .. هذا هو السبب إذن .
هتف (مهاب) فى حدة :
ـ لا .. ليس هذا هو السبب .
ثم ازدرد لعابه ، واستطرد فى شىء من الأسى :
ـ يمكننى أن أسد جوعى بثمرة أو ثمرتين من الفاكهة .
أطلق (فارس) ضحكة مرحة أخرى ، فأضاف (مهاب) فى عصبية :
ـ ثم إننى أبغض البقاء طوال النهار داخل الخيمة كالسجين .
ابتسم الشيخ ، وقال :
ـ فلتحمد الله (سبحانه وتعالى) ، على أننا سكبنا

الشمع على قماش خيامنا ، وإلا لانهمرت الأمطار داخلها ، كما تنهمر خارجها .
اعتدل (فارس) ، وقال :
ـ هذا صحيح يا سيِّدى ، فالشمع الذى طلينا به الخيام ، يجعل الأمطار تنزلق منها ، فلا تبتل أو تنهار ، إنها فكرة عبقريَّة بحق .
رفع الشيخ سبَّابته ، وهو يقول :
ـ بل هو العلم يا ولدى .. العلم يجعلك تتفوَّق على خصومك ، وتتقى نوائب الدهر والطبيعة ، لو أنك مزجته بالإيمان الخالص ، ومخافة الله عزَّ وجلَّ .
زمجر (مهاب) ، وهو يقول :
ـ وماذا عن القوة ؟
التفت إليه الشيخ ، وقال :
ـ العلم قوة يا (مهاب) .
مطَّ (مهاب) شفتيه ، دون أن يجيب ، وإن شفَّت ملامحه عن عدم اقتناعه ، فنهض (فارس) ، وقال ضاحكًا :
ـ عفوًا يا سيدى .. معلمى (مهاب) يعجز عن التفكير بشكل جيد ، عندما تكون معدته خالية .
قال الشيخ فى هدوء :

- المعدة الممتلئة تعنى رأسًا فارغًا .

أطلق (فارس) ضحكة عالية ، واختطف قوسه ونشابه ، وهو يقول :

- هذا لا ينطبق على (مهاب) .

قالها ، واتجه إلى ساتر الخيمة ، فهتف به (مهاب) :

- إلى أين ؟

أجابه مبتسمًا :

- سأحضر لك شيئًا يمكن شيّه .. أنا أعرف مرادك .

بدت الفرحة فى عينى (مهاب) لحظة ، ثم لم يلبث أن كتمها خلف نظرة صارمة مصطنعة ، وهو يقول :

- لا .. لن تخرج فى هذا المناخ الردىء ، من أجل ..

قاطعه (فارس) بسرعة :

- لا تحاول منعى يا صديقى .. إننى أرغب فى هذا ، فلقد أوحشنى الصيد والقنص .

هتف (مهاب) :

- فى مثل هذا الطقس ؟!.. إنك لن تجد حيوانًا واحدًا خارج جحره الآن .

ضحك (فارس) ، وقال :

- الحيوانات لا تخشى المطر مثلنا يا صديقى .

التفت (مهاب) إلى الشيخ ، وقال مستنكرًا :

- سيّدى .. هل ستسمح له بهذا ؟

توقّف (فارس) ، وتطلّع بنظرة متسائلة إلى الشيخ ، الذى قال فى هدوء رصين :

- دعه يذهب يا (مهاب) .

التقى حاجبا (مهاب) فى دهشة ، وهو يحدّق فى وجه الشيخ ، وهمّ بقول عبارة اعتراضية قصيرة ، ولكن مهابة الشيخ ووقاره خنقا العبارة فى حلقه ، فتمتم فى صوت متحشرج :

- كما تأمر يا سيّدى .

ابتسم (فارس) فى ارتياح ، وقال فى مرح :

- أشعل النار يا (مهاب) ، واترك لعابك يسيل ، وانتظر عودتى .

ثم انطلق فى نشاط وحيوية إلى جواده (رفيق) ، الذى وقف هادئًا ساكنًا ، تحت قطرات المطر ، وكأنما لا تشكّل له تقلبات الطبيعة أى إزعاج أو قلق ، ولكنه لم يلبث أن اعتدل فى حماس ، والتفت بعنقه إلى صاحبه ، الذى هتف به :

- صباح الخير يا (رفيق) .. أبشر يا صديقى .. سنزاول تدريباتنا كالمعتاد .

وأمسك معرفة (رفيق) بيسراه ، ثم وثب على ظهره فى رشاقة ، ولم يكد يستقر على متنه ، دون سرج أو لجام ، حتى لكزه بركبتيه فى بطنه ، وهو يقول :

ـ هيًا يا صديقى .. انطلق .
رفع الجواد قائمتيه الأماميتين ، وأطلق صهيلًا حماسيًا قويًا ، وهو يضرب بهما الهواء ، والتمعت عيناه فى جذل ، وكأنما كان ينتظر هذا النداء ويشتاق إليه ، ثم انطلق براكبه يدور حول الخيام الثلاث ، قبل أن ينهب الأرض نهبًا ، متجهًا إلى الدغل القريب ، والأمطار تغرقه مع صاحبه ، وتتناثر حولهما مع ضربات حوافره القوية ..
وفى الخيمة الكبرى ، غمغم (مهاب) فى قلق :
ـ لماذا سمحت له بالذهاب يا سيِّدى ؟
أجابه الشيخ فى هدوء رصين :
ـ إنه فارس يا (مهاب) .. وعلى الفارس أن يعتاد القتال ، فى كل مناخ ..
شعر (مهاب) بالخجل من نفسه ، لما تضمَّنه جواب الشيخ من حكمة ومنطق ، وتمتم فى خفوت :
ـ صدقت يا سيِّدى .
ثم أزاح ساتر الخيمة ، فسأله الشيخ :
ـ إلى أين ؟
أجابه فى تلقائية :
ـ سأشعل النار .. وأنتظره .
وابتسم الشيخ ..

وفى نفس اللحظة ، كان (فارس) يعدو بجواده وسط الدغل ، وهو يدير عينيه فيما حوله ، بحثًا عن فريسة تصلح لطعام الجميع ، وابتسم وهو يقول لجواده :
ـ من الواضح أن المهمة لن تكون سهلة أو بسيطة يا صديقى ، فالدغل يبدو خاليًا تقريبًا ، من كل ما يتحرَّك ، حتى أن ..
بتر عبارته بغتة ، عندما لمحت عيناه أرنبًا بريًا ، اختفى من الأمطار المنهمرة ، خلف جذع شجرة كبيرة ، فجذب لجام جواده ، وهو يهمس فى انفعال :
ـ رويدك يا (رفيق) .. يبدو أنه هناك أرنبا يزمع الانتحار .
أوقف جواده ، وهبط عن متنه فى حذر ، وربَّت على عنقه يدعوه إلى الهدوء والصمت ، ثم جذب سهمًا من كنانته ، ووضعه فى قوسه ، وتحرَّك فى بطء ، حتى اختفى خلف شجيرة قصيرة ، تطلّ على جذع الشجرة مباشرة ، وجذب وتر القوس فى قوة ، وهو يصوِّب سهمه نحو الأرنب ، ثم أطلق السهم ..
وحدث أغرب شىء ممكن ..
لقد أخطأ (فارس) هدفه ..
أخطأه على الرغم من قصر المسافة ، وقوة القوس

والسهم ، ومهارته هو المعروفة ، حتى أن (رفيق) نفسه أطلق صهيلًا اعتراضيًا خافتًا ، عندما رأى الأرنب البرى يعدو مبتعدًا ، ولكن (فارس) لم يبد أدنى اهتمام بالأرنب الهارب ، ولا بالسهم الذى أخطأ هدفه ، وإنما أشار إلى نقطة بعيدة ، هاتفًا :

- هل رأيت ؟.. هل رأيت هذا يا (رفيق) ؟

ثم وثب على صهوة الجواد ، وهو يستطرد فى حماس :

- يبدو أنه هناك من يحتاج إلينا يا صديقى .

لم يفهم (رفيق) ما يقوله فارسه ، ولم يدرك ما الذى رآه ، وجعله يفقد تركيزه فى اللحظة الأخيرة ، ويخطئ إصابة هدفه ، ولكنه شعر بغريزته أن صاحبه يعانى انفعالًا قويًا مباغتًا ، فأطاعه بسرعة ، وانطلق يعدو إلى حيث يقوده .. أما (فارس) ، فقد تعلقت عيناه بشبح يعدو فوق الحشائش المبتلة ، وقد أخفى الضوء الخافت فى الدغل والأمطار ملامحه ، وخلفه فارسان ، يحاولان اللحاق به واقتناصه ..

وكان من الواضح أن هذا الذى يعدو امرأة ..

امرأة يطاردها رجلان ..

وهذا يقلق (فارس) دائمًا ، ويثير حنقه واشمئزازه .. أن يقاتل الرجال النساء ..

ولكن هذا لم يكن السبب الوحيد ، الذى دفع (فارس) للانطلاق بهذا الحماس ..

كان هناك سبب أكثر قوة ..

فالرجلان اللذان يطاردان المرأة لم يكونا من أهالى (غرناطة) ..

إنهما فارسان ..

فارسان قشتاليان ..

★ ★ ★

أطلقت المرأة صرخات قصيرة متتابعة ، تموج بالرعب والفزع ، وهى تعدو أمام الفارسين ، اللذين راحا يلوحان بسيفيهما ، وهما يطاردانها ، ويلتفان حولها ، فى محاولة لحصارها واقتناصها ، ويطلقان صيحات ظافرة ساخرة ، وأحدهما يهتف بزميله :

- تذكَّر ألا تصيبها بجروح أو كدمات .. نريدها سليمة معافاة .

قهقه زميله ضاحكًا ، وهو يقول :

- هل توصينى ؟!.. كيف لى أن أتلف هذا الجمال ، وهذه الفتنة المجسَّمة ؟!

لهثت المرأة فى تهالك ، وقد أنهكها التعب ، وتلاحقت أنفاسها ، وتصاعدت ضربات قلبها فى شدة ، حتى لم تعد تحتمل ، فتوقَّفت لحظة ، ثم هوت فوق العشب المبتل ،


ثم هوت فوق العشب المبتل ، وانفجرت باكية ، وهى تضرب الأرض بقبضتها فى مرارة ويأس ..

وانفجرت باكية ، وهى تضرب الأرض بقبضتها فى مرارة ويأس .. وجذب الفارسان عنانى جواديهما ، وتألق الظفر فى عيونهما ، وقال الأوّل :

ـ لم يكن الأمر يستحق كل هذا العناء .

هزّ الثانى كتفيه ، وقال بابتسامة أشبه بابتسامة الذئاب ، وهو يهبط عن صهوة جواده :

ـ احتفظ بهذا الرأى لنفسك .

ثم جذب المرأة من شعرها فى قسوة ، وهو يستطرد :

ـ إننى أدفع عمرى من أجل فاتنة مثلها .

لم يكد يتم عبارته ، حتى ظهر (فارس) على متن جواده ، وهو يهتف فى غضب :

ـ استعد للدفع إذن أيها القشتالى .

اعتدل القشتالى ، واستل سيفه فى سرعة ، وشاركه زميله فعلته ، واستقبل الاثنان (فارس) فى وحشية وشراسة ، ولكن (فارس) استل سيفه بدوره ، وانقضَّ على القشتالى الذى يمتطى جواده ، والذى رفع ترسه ليتقى الضربة ، هاتفًا :

ـ ابتعد أيها العربى ، وإلا ..

هوى (فارس) بسيفه على المجنّ الذى يحمله القشتالى ، وهو يقول :

ـ وإلا ماذا ؟

وكانت ضربته من القوة والشدة والمهارة ، حتى أنها زلزلت كيان القشتالى ، وجعلت جسده كله يهتز فى قوة ، وأفقدته قدرته على القتال لحظة ، تحرك خلالها (فارس) فى حنكة ، وأدار سيفه فى ذكاء رائع ، وضرب درع القشتالى ، فمزق تلك الأربطة الجلدية ، التى تثبت الترس إلى ذراعه ..

وفقد القشتالى سائره ، فى نفس اللحظة التى هاجم فيها زميله (فارس) ، محاولًا طعنه بسيفه فى معدته ، ولكن (رفيق) تراجع فى سرعة ، كأى جواد مدرب شجاع ، وأطلق صهيلًا قويًا ، فاستدار (فارس) إلى القشتالى الثانى ، ودفعه بقدمه فى صدره بقوة ، ثم هوى على يده بسيفه الفضى ..

وصرخ القشتالى ، والسيف يسقط من يده الجريحة ، وانطلق هاربًا ، ليثب على متن جواده ، ويعدو به هاربًا ، فتراجع زميله لحظة ، وهتف :

- اللعنة .

ثم جذب عنان جواده ، وانطلق به خلف زميله ؛ ليشاركه فراره ، فصاح بهما (فارس) فى غضب :

- إياكما ووطء تراب (غرناطة) مرة أخرى .

وراقبهما فى حزم ، حتى غابا عن الأنظار ، ثم التفت إلى المرأة ، وهو يقول فى لهجة مهذبة :

- انهضى يا سيدتى .. لقد زال الخطر ، وأنت الآن فى يد أمينة .

أجهشت المرأة بالبكاء لحظات ، ثم نهضت فى بطء بثوبها المبتل ، واستدارت تتطلع إليه بعينين محمرتين من أثر البكاء ..

وانعقد حاجبا (فارس) فى شدة ..

لقد كان يعرف هذه المرأة جيدًا ..

وكان وجودها فى هذا المكان مفاجأة ..

مفاجأة مذهلة .

* * *



٢ ـ المــرأة ..

« غالا ؟!.. »

هتفت الملكة (إيزابيلا) ، ملكة (قشتالة) و (ليون) ، بتلك الكلمة فى مزيج من الدهشة والاستنكار ، فى وجه الملك (فرناندو) ، الذى ابتسم فى برود ، وارتشف رشفة من كأسه ، وهو يقول :

ـ نعم .. (غالا) .. لماذا يدهشك هذا ؟

انعقد حاجبا (إيزابيلا) فى شدة ، وهى تتطلع إليه بنظرة متوترة ، ثم اعتدلت فى كبرياء ، وقالت :

ـ لست أصدق هذا .

أطلق ضحكة ساخرة قصيرة ، وهو يقول :

ـ أتثقين بها إلى هذا الحد ؟

هزت رأسها فى حزم ، وهى تقول :

ـ ليست مسألة ثقة .. (غالا) وصيفتى الخاصة منذ عشر سنوات ، وأنا أعرفها تمام المعرفة .. قد تكون عصبية وعنيدة ، ولكنها ليست أبدًا خائنة .

رمقها (فرناندو) بنظرة عجيبة ، ثم جرع كأسه كله ، قبل أن يقول :

ـ هل تعلمين أننى طلبت منها إرسال رسالة عاجلة بالحمام الزاجل ، إلى بعض فرقنا ، لمنعها من الاشتباك مع العرب ، ولكنها لم تفعل ، وإنما خدعتنى بإرسال حمامة أخرى إلى معسكر آخر بعيد ؟

قالت (إيزابيلا) :

ـ ربما أخطأت اختيار الحمامة المطلوبة .

ابتسم فى سخرية ، وهو يقول :

ـ (غالا) ؟!.. أأنتِ واثقة من أننا نتحدث عن الشخص نفسه .

عاد حاجبا (إيزابيلا) ينعقدان مرة أخرى فى شدة ، وهى تقول :

ـ اسمع يا (فرناندو) .

زمجر قائلًا فى غلظة :

ـ خاطبينى بلقب (مولاى) .

تراجعت فى حركة غاضبة ، ولكنها كتمت غيظها كله فى أعماقها ، وهى تقول :

ـ فليكن يا (مولاى) .. إنك لن تنجح أبدًا فى إقناعى بأن (غالا) قد هربت من القصر ، خشية عقابك ، وأنها تجاوزت كل خطوطنا ، حتى أمكنها الوصول إلى (غرناطة) .. هناك أمر ما خلف هذه الخدعة القذرة .

قال ساخرًا :

ـ أمر مثل ماذا ؟

قالت فى حدة :

ـ لست أدرى بعد .

ثم أردفت غاضبة :

ـ ولكننى سأتوصّل إليه ، أن عاجلًا أو آجلًا .

قال فى سخرية :

ـ حقًا ؟!

ثم انعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يستطرد :

ـ فكرى كما يحلو لك يا عزيزتى (إيزابيلا) ، ولكن كل ما لدى لأخبرك به ، هو أن (غالا) هاربة بالفعل ، ولقد أصدرت أوامرى بمطاردتها بلا رحمة ..

واعتدل ليشدّ قامته ، وهو يضيف فى حزم :

ـ وحتى آخر الدنيا .

ولم يكن من الممكن أن تناقشه (إيزابيلا) ، بعد ما حسم به الأمر ، ولكنها ظلت تشعر فى أعماقها أنه هناك سرّ يختفى خلف فرار (غالا) ..

سرّ غامض ..

★ ★ ★

مطّ (مهاب) شفتيه فى تململ ، وهو يتطلّع إلى الأفق ، ويغمغم محنقًا :

ـ أين ذهب هذا الفتى ؟.. لقد أشعلت النيران مرتين حتى الآن ، وها هى ذى تكاد تنطفئ ، ولم يظهر بعد .

أجابه الشيخ من داخل الخيمة :

ـ العثور على صيد ثمين ليس بالأمر السهل ، فى مثل هذا الطقس .

قال (مهاب) فى تذمر :

ـ هذا ما أشرت به ، ولكنكما آ ....

بتر عبارته دفعة واحدة ، على نحو أثار قلق الشيخ داخل الخيمة ، فسأل :

ـ ماذا حدث ؟

مضت لحظة من الصمت ، ثم أجابه (مهاب) بصوت يحمل الكثير من الدهشة :

ـ يبدو أن ذلك الفتى قد عثر على صيد جديد ، ولكنه لا يصلح ـ على الأرجح ـ للأكل .

كانت العبارة كافية لإثارة اهتمام الشيخ وفضوله ، فأزاح ساتر الخيمة ، وأطلّ برأسه منها ، ثم اقترب حاجباه فى مزيج من الدهشة والقلق ، عندما رأى (رفيق) عائدًا إلى المعسكر ، وعلى متنه (فارس) ، وامرأة شقراء فاتنة ، تجلس خلفه ، وقد ألقت قدميها إلى يمين الجواد ، وأحاطت وسط (فارس) بذراعها ..

وفى هدوء ، اقترب (فارس) من المعسكر ، ورفع يده الممسكة بأذنى أرنب جبلى ، وهو يقول مبتسمًا :

ـ ها هو ذا الطعام يا صديقى (مهاب) .. ضع مزيدًا من الحطب فى النار ، وسنتناول جميعًا وجبة شهية بعد قليل .

ثم عاون (غالا) على الهبوط ، ووثب بدوره عن ظهر الجواد ، وهو يشير إليها ، قائلًا :

ـ أقدِّم لكما (غـالا) .. الوصيفة الخاصة للملكة (إيزابيلا) .

تطلَّع إليها الاثنان لحظة فى صمت ، ثم قال الشيخ فى هدوء رصين :

ـ أهلًا بك على الرحب والسعة يا بنيتى .

والتفت إلى (مهاب) ، مستطردًا :

ـ هيا يا ولدى .. أعدَّ الطعام لضيفتنا .

لم يبد (مهاب) اعتراضًا ، وهو يعدّ الأرنب البرى ، ويبدأ فى شيّه ، فى حين أشار الشيخ بيده ، وهو يقول :

ـ اذهبى لتحصلى على قدر من الراحة يا بنيتى ، وستجدين ثوبًا جافًا ، من ثياب (فارس) .

غمغمت (غالا) ، وهى تسرع إلى خيمة (فارس) :

ـ أشكرك يا سيِّدى .. أشكرك كثيرًا .

ارتسمت على شفتى الشيخ ابتسامة باهتة ، فى حين راح (فارس) يروى له ما حدث بكل التفاصيل ، واستمع إليه الشيخ فى اهتمام ، ثم قال :

ـ أحسنت فعلًا يا ولدى .

مطَّ (مهاب) شفتيه ، وهو يقول :

ـ لن أثق أبدًا بهذه المرأة .. إنها قشتالية ، والذئاب لا تنجب حملانًا .

قال الشيخ فى هدوء :

ـ إنها ستقضى الليل فى معسكرنا ، حتى تجف ثيابها ، ثم نذهب بها إلى الحمراء (★) مع مشرق شمس الغد .

تنهَّد (مهاب) فى ارتياح ، وقال :

ـ هذا أفضل .

ثم أضاف فى حدة :

ـ وإن كنت أشعر أن الليل سيحمل لنا الكثير .

أجابه (فارس) فى حزم :

ـ اطمئن .. سأتولى الحراسة بنفسى طيلة الليل .

نقل الشيخ بصره بينهما ، ثم قال :

ـ فليكن يا ولدى .. فليكن .

ولكنه ، فى أعماقه ، كان يشعر أيضًا أن الليل سيحمل الكثير ..

والكثير جدًا ..

★ ★ ★

(★) الحمراء : مجموعة من الأبنية ، مقامة على ربوة تطلّ على (غرناطة) ، بنيت فيما بين (١٢٤٨ - ١٣٥٤) ، وكانت قلعة وقصرًا لملوك (بنى نصر) ، أو (بنى الأحمر) ، وقد لعبت القلعة دورًا هامًا فى المنازعات التى جرت حول الإمارة فى عهدهم ، وتعتبر الحمراء أجمل أمثلة العمارة الإسلامية فى (الأندلس) ، وبها ساحة السباع ، ونافورة السباع ، ولقد كان سقوطها فى يد الأسبان إيذانًا بانتهاء الحكم العربى فى حضارة (الأندلس) .

كاد (فارس) يقسم بأنه لم ير فى حياته كلها ، من هى أكثر فتنة وجمالًا من (غالا) ، بعد أن صفّفت شعرها ، واستعادت نضارتها ، وحصلت على قسط وافر من النوم ، على الرغم من أنها كانت ترتدى ثيابه هو الخشنة ، لا ثيابها الوردية الحريرية الناعمة ..

ولكن (فارس) لم يتطلّع طويلًا إلى (غالا) ، وإنما تحاشى النظر إلى فتنتها الطاغية طوال الوقت ، وهى تتناول الطعام معهما ، أو تصفّف شعرها الأشقر الطويل أمام خيمته ، بل انهمك مع (مهاب) فى تدريبات قتالية طويلة ، بعد أن توقّف المطر عن الانهمار ، حتى مالت الشمس إلى المغيب ، وتوقّف صليل السيوف ، وارتسمت على شفتى (مهاب) ابتسامة مرهقة ، وهو يربّت على كتف (فارس) ، قائلًا :

- أحسنت يا فتى .. ضرباتك اليوم قوية وحاسمة .

أجابه (فارس) ، وهو يعيد سيفه إلى غمده :

- وضرباتك كذلك .

ضحك (مهاب) ، وهو يقول :

- ضرباتى ؟!.. إنك لم تر ضرباتى ، فى زمن الصبا والشباب .

ابتسم (فارس) ، وهو يقول :

- لقد فاتنى هذا .

ثم اعتدل فى وقفته ، وهو يستطرد فى حزم :

- يمكنك الخلود إلى النوم ملء جفنيك ، وسأتولى أنا مسئولية الحراسة الليلية .

تطلّع إليه (مهاب) لحظة فى صمت ، ثم قال :

- وفّقك الله يا فتى .

أما الشيخ ، فالتفت إلى (فارس) ، وقال فى حزم :

- كن يقظًا .

غمغم (فارس) :

- اطمئن يا عماه .

كان قول الشيخ بالذات يدهشه ، ويثير قلقه وحيرته ، فلم يحدث قط ، منذ صباه ، أن طلب منه هذا المطلب ، فى ليلة تولّى فيها مسئولية الحراسة ، مهما بلغت خطورة الظروف المحيطة ..

ولكنه كتم مشاعره فى أعماقه ، واغتسل ، وتناول طعام العشاء مع الجميع ، ثم انتظر حتى أوى كل منهم إلى فراشه ، ثم اتجه إلى ربوة عالية ، واستلّ سيفه الفضى ، ووضعه إلى جواره ، ثم جلس يراقب النجوم فى صمت ..

وكانت الغيوم قد انقشعت ، وعاد الطقس إلى سابق عهده ، وتألّقت النجوم فى السماء كمصابيح مزينة ، مما خلب لبّه ، وبعث فى نفسه الهدوء والارتياح ..

ولكن فجأة ، ندت إلى جواره حركة خافتة ، جعلته يحمل سيفه ، ويقفز متحفزًا ، ولكنه سمع شهقة أنثوية ، قبل أن يتبيّن وجه (غالا) ، وهى تقول فى اضطراب :

ـ رويدك .. إنه أنا .

عقد حاجبيه فى صرامة ، وهو يعيد سيفه إلى غمده ، قائلًا :

ـ ما الذى أتى بك إلى هنا ؟.. لماذا غادرت خيمتى ؟

ارتسمت على شفتيها الجميلتين ابتسامة امتنان ، وهى تقول :

ـ أردت أن أشكرك ، على ما فعلته من أجلى .

غمغم فى جمود :

ـ لقد فعلت ما يتحتم علىّ فعله .

قالت فى هيام :

ـ وهذا يستحق الشكر .

تطلّع كل منهما إلى عينى الآخر لحظة ، ثم أشاح (فارس) بوجهه ، قائلًا :

ـ عودى إلى خيمتك .

قالت فى رجاء :

ـ ألا يمكننى البقاء قليلًا ؟

شعر بالكثير من القلق والتوتر فى أعماقه ، وهم برفض مطلبها ، لولا أن أضافت فى ضراعة مستكينة :

ـ أرجـوك .

صمت بعض الوقت ، ثم قال فى صرامة :

ـ هذا شأنك .

تهلّلت أساريرها ، ولكنه تركها واقفة ، وعاد يجلس فوق الربوة ، فابتسمت لحظة ، ثم جلست إلى جواره ، وهمست :

ـ ألا تريد أن تعرف ، لماذا هربت من (قرطبة) ؟

قال فى لهجة جافة :

ـ لو أردت إخبارى لفعلت .

تنهّدت ، قائلة :

ـ لقد أصدر الملك (فرناندو) أمرًا بإعدامى .

عقد حاجبيه فى دهشة ، فأضافت بسرعة :

ـ من أجلك .

ـ من أجلى أنا ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، واقتربت منه أكثر ، وهى تهمس :

ـ نعم .. من أجلك أنت .

شعرت بتوتره لاقترابها منه على هذا النحو ، فتراجعت قليلًا ، مستطردة :

ـ هل تذكر قتالك مع (ماريو) ؟.. (الفـارس الأسود) ؟.. أيامها طلب منى الملك أن أرسل رسالة



قالت فى حماس :
ـ لأننى أردت أن تنتصر ..

بوساطة الحمام الزاجل ، إلى المعسكر الجنوبى ، لتحذير الفرق الثلاث ، التى كانت فى طريقها لعبور حدودكم ، ولكننى خدعته ، وأرسلت الرسالة بوساطة حمامة أخرى ، لا شأن لها بالمعسكر الجنوبى ، فلم يتم تحذير الفرق الثلاث ، وعبرت حدودكم ، فأبدتموها عن آخرها .

سألها فى حيرة :

ـ ولماذا فعلت هذا ؟

قالت فى حماس :

ـ لأننى أردتُ أن تنتصر .

عقد حاجبيه مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ لمـاذا ؟

ابتسمت فى دلال ، ورفعت أناملها تتحسّس وجهه ، هامسة :

ـ ألم تفهم بعد ؟..

كانت أصابعها ناعمة ، وأنفاسها حارة ، ورائحتها العطرية تدير رأس أعتى الرجال ، و ...

ـ ، من أين أتيت بالعطر ؟.. ،

ألقى (فارس) عليها السؤال بغتة فى صرامة ، فتراجعت بحركة حادة ، وتطلّعت إليه بنظرة دهشة ساخطة ، قبل أن تقول فى حدة :

ـ أى عطر ؟

أشار إليها ، قائلا فى حزم :

ـ هذا الذى يداعب أنفى .

قالت فى توتر :

ـ إننى أحتفظ به دائما .

قال فى شك صارم :

ـ عجبًا !.. لست أتخيَّل هاربًا من حكم بالإعدام ، يفكر فى حمل زجاجة عطر معه .

قالت فى عصبية :

ـ هذا لأنك لست امرأة .

قال فى بطء :

ـ أو لست مخادعا .

التفتت إليه فى حدة ، وقالت :

ـ كيف تقول هذا ، وأنا الـ ....

ثم بترت عبارتها بغتة ، واتسعت عيناها ، ثم صرخت :

ـ احتـرس .

ومع الحروف الأولى لصرختها ، قفز يحمل سيفه ، ويلتفت إلى حيث تشير وتنظر ..

وعلى ضوء النجوم ، رأى (فارس) خمسة من الرجال الأشداء ، ينقضون عليه بسيوفهم ، وأحدهم يقفز نحوه ، ويهوى بالسيف ..

على رأسه مباشرة .

★ ★ ★

٣ ـ صليل السيوف ..

شهقت الأميرة (جميلة) ، ابنة أمير (غرناطة) ، وهى تهبّ من فراشها ، ووضعت يدها على صدرها ، وهى تسعل فى شدة ، فأسرعت إليها وصيفتها ، وهى تقول فى جزع :

ـ ا بك يا مولاتى ؟.. ماذا أصابك ؟

أشاحت الأميرة بوجهها ، لتخفى خيطًا من الدموع ، انساب [illegible] جنتيها ، وهى تقول :

ـ لا شىء .. د شىء .. عودى إلى النوم .

حملت الوصيفة مصباحا ، ودنت منها قليلًا ، ثم هتفت منزعجة :

ـ مولاتى .. إنك تبكين .

هتفت بها الأميرة (جميلة) :

ـ عودى إلى النوم .

ثم أجهشت فجأة بالبكاء ، فاحتوتها الوصيفة بين ذراعيها فى حنان ، وهى تقول :

ـ ماذا أصابك يا بنيتى ؟.. بل ماذا دهاك ؟.. أهو كابوس ثقيل ؟

تركت (جميلة) رأسها يسترخى على كتف وصيفتها ، التى ربتها منذ وفاة أمها ، وقالت فى مرارة :

ـ ليته كان كذلك .

هتفت بها الوصيفة فى لوعة :

- أ إلى هذا الحد ؟!.. أخبرينى ماذا بك يا بنيتى .. أفرغى مشاعرك فى أذنىّ أدامك الله .

بكت الأميرة لحظة ، ثم قالت :

- إنه (فارس) .

ابتسمت الوصيفة فى حنان ، وهى تقول :

- وماذا عنه ؟.. ألم يبلغك والدك أنه سيتقدّم لخطبتك ؟

اعتدلت الأميرة ، ومسحت شيئًا من دموعها ، وهى تقول :

- ولكنه لم يفعل .. لقد مضى شهر على هذا القول ، ولم يأت (فارس) إلى هنا قط .

احتوتها الوصيفة مرة أخرى فى صدرها الحنون ، وهى تبتسم مشفقة ، وتقول :

- وا مولاتى .. الغد آت لا ريب .. لا تتعجّلى الأمور .

قالت (جميلة) فى مرارة :

- ولكن (فارس) لايشعر بى قط .. إنه مشغول بمستقبل (الأندلس) و (غرناطة) فحسب ، وأخشى أن .. أن ..

سألتها وصيفتها فى حنان :

- ما الذى تخشينه يا بنيتى ؟

انتحبت (جميلة) لحظة ، ثم قالت :

- أخشى أن تكون هناك أخرى .

انعقد حاجبا الوصيفة ، وهى تردد :

- أخرى ؟!

ثم ضمّت (جميلة) إليها أكثر ، وهى تضيف :

- لا تجعلى هذا الخاطر يلتهمك يا بنيتى ، ما دام لا يوجد ما يشير إليه أو ينمّ عنه .. ألقيه خلف ظهرك يا مولاتى ، ولن يلبث الغد أن يشرق ، ويكشف كل الحقائق .

غاصت (جميلة) بين ذراعيها ، وهى تتمتم فى أسى :

- هذا لو جاء الغد .

نعم ..

لو جاء الغد ..

* * *

أطلقت (غالا) صرخة رعب ، وهى تشاهد السيف الضخم ، الذى يهوى على رأس (فارس) وتصوّرت لحظة أنه سيشج الرأس إلى نصفين ، ولكن (فارس) وثب جانبًا فى مرونة ، واستقبل السيف على سيفه الفضى ، ثم أزاحه بعيدًا ، وهو يهتف :

- الآن فقدتم عامل المفاجأة أيها الحقراء .

انقضّ عليه الرجال الخمسة ، ولكنه قاتلهم كأسد هصور ، وراح سيفه يضرب هنا وهناك ، فى سرعة وقوة ومهارة ، فى حين جرت (غالا) نحو المعسكر ، صارخة :

- النجدة .. النجدة ..

ولكن (مهاب) كان قد هبّ من رقاده ، مع صرختها الأولى ، واندفع يؤازر صديقه وتلميذه فى حزم وشجاعة ..

وبدأ القتال ..

قتال عنيف شرس ، بين خمسة من فرسان قشتالة ، المتنكرين فى ثياب عربية ، وفارسين من عرب (الأندلس) ..

ولكن الفارسين كانا يقاتلان فى استماتة ، حتى أن القشتاليين الخمسة تراجعوا أمامهم ، وأحدهم يهتف بالأسبانية :

ـ إننا نقاتل وحشين .. تراجعوا يا رجال .. لقد فشل الهجوم الليلى .

أسرعوا يفرون من أمام (مهاب) و (فارس) ، ولكن الأخير صاح :

ـ لن نسمح لهم بالفرار .. أليس كذلك يا صديقى ؟

اندفع (مهاب) إلى جواده ، ووثب على متنه ، هاتفًا :

ـ سنطاردهم حتى آخر الدنيا .

قفز (فارس) إلى جواده بدوره ، وهو يكمل :

ـ وحتى آخر رمق .

انطلقا بجواديهما خلف جياد القشتاليين الخمسة ، وتابعتهما (غالا) ببصرها لحظة ، ثم خفق قلبها فى قوة ، عندما لمحت ظلًا أسود ينطلق خلفهما ، من قلب الظلام ، وشهقت هاتفة :

ـ إنه ذلك الزنجى .

أتى من خلفها صوت الشيخ الوقور ، يقول :

ـ نعم .. إنه (فهد) .

التفتت إليه فى حركة حادة ، ورمقته لحظة بنظرة متوترة ، ثم لم تلبث أن ابتسمت فى عصبية ، وهى تقول :

ـ آه .. هل اسمه (فهد) ؟

أومأ الشيخ برأسه إيجابًا ، وهو يرمقها بنظرة طويلة ، ثم سألها فجأة :

ـ كيف عرفت خيمة (فارس) ؟

حدّقت فى وجهه ، وهى تقول مأخوذة :

ـ ماذا ؟

كرّر فى هدوء :

ـ كيف عرفت أن الخيمة التى اتجهت إليها ، هى خيمة (فارس) بالتحديد ؟.. لقد طلبت منك الذهاب إلى خيمة (فارس) ، دون أن أشير إليها ، وكانت أمامك ثلاث خيام ، فكيف عرفت خيمته بالذات ، واتجهت إليها مباشرة ؟

صمتت لحظة ، ثم هزّت كتفيها ، وقالت فى اضطراب :

ـ ضربة حظ .

هزّ الشيخ رأسه نفيًا فى هدوء ، وقال :

ـ كلّا يا بنيتى .. إنك حتى لم تترددى .

التقى حاجباها فى توتر ، وهى تقول :

- لقد رأيت جواد (فارس) إلى جوار خيمته .

قال فى حزم :

- خطأ .. (رفيق) يقف دائمًا إلى جوار خيمتى أنا .

بدا مزيج من الغضب والتوتر على وجهها، وهى تقول :

- ما الذى تسعى إليه بالضبط أيها الشيخ ؟.. إنك تشك فى أمرى .. أليس كذلك ؟.. تظن أن وجودى هنا مجرَّد خطة ، للإيقاع بكم ، أو التخلُّص منكم .. أنت لا تثق بى ، لمجرَّد أننى قشتالية .. ألم تسأل نفسك إذن لماذا صرخت لأحذر فارسكم هذا ، عندما هاجمه القشتاليون ؟!.. لماذا لم أتركهم يتخلصون منه فى صمت وهدوء ، مادام هذا هو الغرض الرئيسى لوجودى هنا ؟

ثم انفجرت باكية ، وهى تستطرد فى مرارة :

- لماذا ؟.. لماذا ؟

شعر الشيخ بشىء من الشفقة نحوها ، وغمغم :

- الواقع يا بنيتى أن ..

ولكنها حدقت بغتة فى شىء ما خلف ظهره ، ثم شهقت فى قوة ..

وكانت مفاجأة جديدة ..

★ ★ ★

انطلق (فارس) و (مهاب) خلف القشتاليين فى إصرار ، وهوى (مهاب) بسيفه على حزام سرج أحدهم ، وهو يهتف :

- رويدك يا رجل .. إلى أين ؟.. ألا تروق لك بلادنا ؟

سقط القشتالى عن جواده ، فعاجله (مهاب) بضربة أخرى ، بصفحة السيف ، وأسقطه فاقد الوعى ، فى نفس اللحظة التى اشتبك فيها (فارس) مع قشتاليين آخرين ، وأطاح بسيف أحدهما بضربة قوية ، ثم طعن الثانى فى ذراعه ، وهو يقول :

- بل إن بلادنا تروق لهم ، ولهذا يسعون للسيطرة عليها .

صرخ أحد القشتاليين :

- إنها بلادنا نحن .. أنتم استوليتم عليها .

ضربه (فارس) بسيفه ، هاتفًا :

- يمكنكم أن تحاولوا ، ولكن ..

أوقفته فجأة صرخة من (مهاب) :

- ربَّاه !.. انظر يا (فارس) .

التفت (فارس) بسرعة ، إلى حيث يشير (مهاب) ، ثم التقى حاجباه فى شدة ..

فهناك ، حيث يقع المعسكر الصغير ، كان الأفق يصطبغ بوهج مخيف ، يتراقص فى سرعة ، مما جعل (فارس) يهتف :

- النيران .

وجذب معرفة (رفيق) ، وانطلق معه عائدًا إلى المعسكر ، وخلفه (مهاب) .. وراح الجوادان ينهبان الأرض نهبًا ، ومن خلفهما تعالى وقع حوافر جواد أسود ، ذاب مع راكبه فى الليل البهيم ..

وأخيرًا ، بلغوا الربوة المطلّة على المعسكر ..

وهتف (مهاب) فى انزعاج شديد :

- اللعنة !

كانت النيران قد اضطرمت فى الخيام الثلاث ، وراحت تلتهمها بسرعة مفزعة ، وتتراقص فوقها فى ظفر وشماتة ، فصاح (فارس) :

- الشيخ .

وهبط بجواده خطوة ، فإذا بجواد (فهد) الأسود يتجاوزه ، وعلى متنه الزنجى الصامت العملاق ، الذى بلغ موضع الخيام فى لمح البصر ، ثم وثب عن جواده ، واقتحم النيران المشتعلة غير آبه ، وراح يبحث عن الشيخ ، حتى هتف به (فارس) :

- تراجع يا (فهد) .. إنه ليس هنا .

تراجع (فهد) ، والغضب يطلّ من عينيه عارمًا ، فى حين هتف (مهاب) فى مرارة :

- لقد فعلوها بنا .. خدعونا .. ونحن سقطنا كالحمقى ، عندما جذبونا لمطاردة بعضهم ، ثم هاجم البعض الآخر المعسكر من خلفنا ، وقتلوا الشيخ .

زمجر (فهد) فى غضب ، ولكن (فارس) صاح :

- لا .. إنهم لم يقتلوه ، وإلا وجدنا جثته .

صرخ (مهاب) :

- وأين تلك القشتالية اللعينة ؟.. إنها المسئولة عن كل هذا .. هى التى فعلت ذلك .

ولكن (فهد) تحرّك فجأة ، وانقضّ على شجرة قريبة ، فهتف به (فارس) :

- ماذا أصابك ؟

ورآه ينحنى خلف جذع الشجرة الضخم ، ثم يجذب جسدًا ، شهق (فارس) لمرآه ، فهتف (مهاب) فى هلع :

- هل .. هل عثرت على جثته ؟

هرع (فارس) الى حيث (فهد) ، وهو يقول :

- إنها (غالا) .

أسرع إليه (مهاب) ، ورآه يحاول إيقاظ (غالا) الفاقدة الوعى ، والتى لم تلبث أن تأوّهت ، وغمغمت :

- أين أنا ؟.. ماذا حدث ؟

قال (فارس) فى حدة :

- كنا سنلقى عليك السؤال نفسه .

فتحت عينيها ، وحدّقت فى وجهه ، قبل أن تهتف فى ارتياع :

- لقد هاجمونا ، وهربت أنا منهم .. الشيخ هو الذى طلب منى الفرار ، وحاول التصدّى لهم بحكمته ووقاره .. ولكن .. ولكن ..

هوى قلب (مهاب) بين ضلوعه ، وهو يقول :

- هل قتلوه ؟

هتفت بسرعة :

- كلا .. إنهم لم يقتلوه .

ثم دفنت وجهها بين كفيها ، مستطردة :

- ولكنهم اختطفوه .. لقد رأيتهم من مخبئى خلف الشجرة ، وهم يفقدونه الوعى ، ثم يشعلون النار فى كل شىء ، ويتراجعون بسرعة ، فى اتجاه الغرب .

اعتدل (فارس) ، وصاح برفيقيه :

- أحضرا بعض المشاعل .. سنطارد هؤلاء الأوغاد .

أمسك (مهاب) ذراعه ، وقال فى حدة :

- انتظر يا فتى .. ليس هكذا تؤخذ الأمور .

ثم أشار إلى (فهد) ، مضيفًا فى حزم :

- (فهد) .

لم يكن بحاجة إلى قول المزيد ، فقد وثب (فهد) إلى جواده ، واختطف قطعة من الحطب المشتعل ، وانطلق نحو الدغل القريب ، فهتف (فارس) :

- ولماذا لا نتبعه ؟

أجابه (مهاب) فى صرامة :

- دعه يتأكد من خط السير أوّلًا .

ورمق (غالا) بنظرة قاسية ، وهو يستطرد :

- لقد استقينا كل معلوماتنا من هذه القشتالية .

اتسعت عينا (غالا) ، وقالت فى ذعر :

- هل تشك فى أمرى ؟

أجابها (مهاب) فى غلظة :

- بالتأكيد .. إننا لم نر القشتاليين على هذا النحو الانتحارى من قبل ، فيجتازون حدودنا ، ويتوغلون فى أرضنا ، حتى يبلغوا هذا المعسكر .. لماذا لم يفعلوا هذا إلا بعد قدومك ؟.. ألديك تفسير منطقى ؟

شحب وجهها ، وانكمشت فى موضعها ، وأدارت

عينيها إلى (فارس) ، وكأنها تستنجد به ، ولكن (فارس) قال فى صرامة :

ـ إننا ننتظر التفسير .

ارتجفت شفتاها ، وهمّت بقول شىء ما ، ولكن (فهد) ظهر فى اللحظة نفسها ، وأشار إشارة ما إلى (مهاب) ، فانعقدا حاجبا هذا الأخير ، وهو يتمتم :

ـ اللعنة !.. لقد محوا كل آثارهم .

قالت (غالا) فى توتر شديد :

ـ صدقونى .. لقد اتجهوا نحو الغرب .. الشمال الغربى بالتحديد .

التفت إليها (مهاب) فى حدة ، وهو يقول :

ـ ولكنك لم تمنحينا التفسير بعد .. لماذا جاء القشتاليون إلى هنا ؟

عادت تنكمش ، قائلة :

ـ إنهم يطاردوننى ؟

قال (فارس) :

ـ وهل يبذلون كل هذه المخاطرة ، من أجل استعادتك فحسب ؟

ارتجف صوتها ، وهى تقول :

ـ ربّما ، فأنا أعلم الكثير .. الكثير جدًا .

سألها (مهاب) فى غلظة :

ـ وما الذى تعلمينه بالضبط ؟

خفت صوتها ، وارتجفت شفتاها بشدة ، وهى تقول :

ـ الخطة ..خطة الهجوم على (غرناطة) .

وتوالت المفاجآت كالسيل ..

* * *





خُيِّل إليها أن الأميرة قد تجمَّدت ، أو استحالت إلى تمثال من المرمر الوردى ، عندما لم تستجب قط لندائها ..

لولو
منى الديقوى

٤ ـ الخطـة ..

تراقصت أضواء المصباح الصغير ، الذى تحمله وصيفة الأميرة (جميلة) ، وهى تعدو به عبر رواق جناح الأميرة ، وتعالى صوت أنفاسها على نحو واضح ، وهى تتوقف أمام حجرة نوم الأميرة ، وتلهث مغمغمة فى انفعال :

ـ رحماك يا إلهى !.. ترى ماذا ستفعل تلك المسكينة ، عندما يصلها الخبر .. أرجو أن أكون أوّل من يحمل إليها التفسير ..

دفعت باب الحجرة فى رفق وحذر ، ثم خفق قلبها فى عنف ، عندما رأت الأميرة جالسة ، إلى جوار نافذة حجرتها المفتوحة ، تتطلَّع فى صمت وشحوب إلى شروق الشمس ، فهتفت فى لوعة :

ـ مولاتى :

خُيِّل إليها أن الأميرة قد تجمَّدت ، أو استحالت إلى تمثال من المرمر الوردى ، عندما لم تستجب قط لندائها ، فهرعت إليها ، تتحسَّس شعرها الأسود الناعم الطويل ، وهى تكرِّر فى خفوت :

ـ مولاتى :

انتبهت فى هذه اللحظة فقط إلى ذلك الخيط من الدموع ، الذى يسيل من عينى الأميرة ، وهى تقول فى مرارة :

ـ لقد رأيت كل شىء يا (نذيرة) .

شهقت الوصيفة ، وهى تقول :

ـ كل شىء !!

ثم استدركت بسرعة وقلق :

ـ ولكن الأمور لا تؤخذ بظواهرها يا مولاتى .

قالت الأميرة ، وكأنها لم تسمعها :

ـ رأيت كل شىء .. ويا ليتنى ما رأيت .. لقد استيقظت مبكرة ، وصليت صلاة الفجر ، ثم فتحت النافذة ، وجلست أراقب الشروق كعادتى ، عندما رأيته يدخل إلى ساحة القصر ..

والتفتت فى بطء إلى الوصيفة ، متابعة فى صوت باك بائس :

ـ رأيت (فارس) يا (نذيرة) .. رأيته وخفق قلبى لمرآه ، وكدت أهتف باسمه ، وأهرع إليه ، متجاهلة كل التقاليد والأعراف ، والقواعد التى لقننى إياها أبى ، من شدة شوقى إليه ولهفتى عليه ، ولكن ..

انهمرت الدموع أكثر وأكثر ، وهى تستطرد :

ـ ولكننى رأيتها معه ..

خفق قلب الوصيفة مرة أخرى فى لوعة ، والأميرة تعود فتتطلع إلى الساحة الخالية ، وكأنها تستعيد معها ذكرى المشهد ، الذى أدمى قلبها :

ـ لم أستطع تبين ملامحها جيدًا ، مع ضوء الشروق الخافت ، ولكن كان من الواضح أنها شقراء وجميلة ، وأنه يوليها اهتمامًا عظيمًا .

هتفت الوصيفة :

ـ أنا رأيتها يا مولاتى .

التفتت إليها الأميرة فى سرعة ، وهى تقول :

ـ رأيتها ؟

ثم تعلقت بها ، مستطردة فى لهفة تمتزج بشىء من الرجاء والضراعة :

ـ صفيها لى يا (نذيرة) .. أخبرينى واصدقينى القول .. هل يحبها ؟.. لماذا أتى بها إلى هنا ؟.. لماذا يا (نذيرة) ؟

أجابتها الوصيفة فى سرعة :

ـ إنها (غالا) .. وصيفة الملكة القشتالية (إيزابيلا) .

انتفض جسد الأميرة فى عنف ، وهى تهتف :

ـ (غالا) ؟.. تلك اللعينة التى أذاقتنى عذاب الدنيا كله ، عندما كنت أسيرة فى (قرطبة) ؟! (*) .

ثم اتسعت عيناها ، وهى تستطرد فى توتر :

ـ ولكن ما صلة (فارس) بامرأة مثل (غالا) ؟!.. لماذا أتى بها إلى هنا ؟.. ولماذا يحيطها باهتمامه ؟

أمسكت الوصيفة كتفيها ، وهى تقول :

(*) راجع قصة (الأميرة الأسيرة) .. المغامرة رقم (٢) .

ـ هذا ما أتيت لأبلغك إياه يا مولاتى .. لقد علمت أن (غالا) هربت من (قرطبة) ، وحاولت أن تحتمى بمعسكر (فارس) ، ولكنها تسببت فى إحراق المعسكر ، واختطاف الشيخ ، و (فارس) أحضرها إلى هنا ، ليمنح مولاى الأمير فرصة استنطاقها واستجوابها ، لمعرفة ما لديها ، فى حين انطلق (فارس) لاستعادة الشيخ ومحاولة إنقاذه من مختطفيه .

هتفت (جميلة) فى لهفة :

ـ حقـًا ؟!

ثم لم تلبث أن عقدت حاجبيها ، وهى تقول :

ـ ولكن لماذا لجأت إلى (فارس) بالذات ؟.. أى سرّ تخفيه ؟

لم تجب الوصيفة سؤالها ، فبقى معلقًا فى سماء الحجرة ، وفى عقل (جميلة) ، الذى راح يعمل بأقصى قوته ، بحثًا عن جواب شاف ..

أى سرّ تخفيه (غالا) ؟!..

أى سرّ ؟!..

★ ★ ★

انطلق جوادا (فارس) و (مهاب) ينهبان الأرض نهبًا ، مع مشرق الشمس ، وبدا (فارس) شديد الانفعال ، وهو يحث جواده على الإسراع ، هاتفًا :

ـ هيًا يا (رفيق) .. هيًا .. لا تسمح لهم بالابتعاد كثيرًا .

صاح به (مهاب) :

ـ رويدك يا فتى .. المسافة من هنا إلى (شنتفى) طويلة ، ولو بذلت الجياد قصارى جهدها منذ البداية ، ستنهار قبل أن نبلغ منتصف الطريق .

قال (فارس) فى توتر :

ـ ولكن هؤلاء الأوغاد يسبقوننا بساعتين على الأقل ، ولو لم نلحق بهم قبل أن يبلغوا (شنتفى) ، سيسبقوننا إلى عبور الحدود ، وتصبح مهمتنا أكثر صعوبة فى (قرطبة) .

هتف (مهاب) لاهثًا :

ـ حتى جيادهم ستحتاج إلى الراحة .. اطمئن .

مضت لحظات من الصمت ، والجياد تواصل طريقها ، ثم قال (مهاب) :

ـ هل تصدّق تلك القشتالية ؟

أجابه (فارس) :

ـ قصتها تبدو معقولة يا صديقى ، فهى تقول : إن القشتاليين قد قرّروا بدء هجوم جديد ، يحاولون به الاستيلاء على ما تبقّى لنا من (الأندلس) ، وأنهم

قد اختاروا بلدة (شنتفى) لبدء الهجوم ؛ نظرًا لقربها من حدودهم ، ولوجود حاكم موال لهم هناك ، وهو (جهلان ابن الراضى) ، الذى سيتيح لهم عبور الحدود ، وتنظيم فرقهم ، وسيمدهم بالأموال والذخائر .

مطَّ (مهاب) شفتيه ، وقال :

ـ أشعر بالألم والمرارة ، كلما بلغنى أمر عربى خائن .

تنهَّد (فارس) ، وقال :

ـ لولا أمثاله ما فقدنا ثلاثة أرباع (الأندلس) حتى الآن .. ثم إن (جهلان) ليس عربيًا خالصًا ؛ فأمه يهودية من أصل فرنسى .

عاد (مهاب) يمطّ شفتيه ، ثم قال :

ـ المهم .. هل تصدِّق قصة تلك القشتالية ؟

صمت (فارس) لحظات ، ثم قال :

ـ ليس أمامنا خيار آخر ؛ فقصتها تبدو معقولة ، وهى تشير إلى أن عملاء (قرطبة) ، الذين اختطفوا شيخنا ، سيحاولون نقله إلى (شنتفى) ، حتى تصل فرقهم ويصل قادتهم .. وهذا يعنى أن مهمتنا مزدوجة ، فلن يكون علينا استعادة شيخنا فحسب، ولكن منع الهجوم القشتالى أيضًا .

عقد (مهاب) حاجبيه لحظات ، قبل أن يقولِ :

ـ أخشى ما أخشاه أن ..

ثم بتر عبارته ، وهتف فجأة :

ـ انتظر .

جذب (فارس) عنان جواده بحركة تلقائية ، فأطلق (رفيق) صهيلًا طويلًا ، وهو يضرب قائمتيه فى الأرض بشدة ، حتى توقَّف تمامًا ، فوثب (فارس) عن متنه ، وسأل (مهاب) ، الذى سبقه إلى الهبوط عن صهوة جواده :

ـ ماذا وجدت ؟

انحنى (مهاب) يفحص الأرض فى اهتمام ، ثم قال :

ـ أعتقد أننا نسير على الطريق الصحيح ، فها هى ذى آثار أربعة جياد ، تنطلق فى اتجاه الشمال الغربى ، وحوافر أحد الجياد أكثر عمقًا من الحوافر الأخرى ، مما يوحى بأنه كان يحمل ثقلًا زائدًا .. وأعتقد أن هذا الثقل الزائد هو الشيخ ، فأحدهم يحمله على جواده .

بدا الارتياح على وجه (فارس) ، وهو يقول :

ـ حمدًا لله .

ولكن الارتياح لم يلبث أن تلاشى ، عندما رأى انعقاد حاجبى (مهاب) ، وهو يعيد فحص الآثار ، فسأله :

ـ هل من مزيد ؟

تنهَّد (مهاب) ، وهزَّ رأسه لحظة ، ثم قال :

ـ لقد توقفوا طويلًا هنا ، ولست أدرى لماذا ؟
أجابه (فارس) فى حذر :
ـ ربما للحصول على قسط من الراحة .
أشار (مهاب) إلى الأرض المقفرة من حوله ، وهو يقول :
ـ هنا ؟!.. حيث لا ماء ولا طعام ولا مكان للراحة !.. لا .. لا أعتقد هذا .. لقد توقفوا لسبب آخر .
عقد (فارس) حاجبيه ، وهو يغمغم :
ـ مثل ماذا ؟
هزّ (مهاب) رأسه ، وغمغم :
ـ لست أدرى .
قالها وهو يدير عينيه فيما حوله فى اهتمام ، ثم هتف فجأة :
ـ انظر يا (فارس) .. هناك .
أدار (فارس) رأسه فى سرعة ، إلى حيث يشير (مهاب) ، ووقع بصره على حرملة الشيخ ، المعلّقة على غصن شجرة قريبة ، ورأى (مهاب) يندفع نحوها ، وهو يواصل هتافه :
ـ إنها حرملة الشيخ .. أنا أعرفها من بين ألف حرملة أخرى .

وانعقد حاجبا (فارس) فى شدة لحظة ، ثم هتف بغتة :
ـ ربّـاه !
وصاح فى (مهاب) :
ـ (مهاب) .. انتظر يا صديقى .. إنه ..
وقبل أن يتم عبارته ، شعر (مهاب) بالأرض تميد تحت قدميه ، ووجد نفسه يهوى فى حفرة عميقة ..
ولم يكن الخطر كامنًا فى عمقها فحسب ، ولكن فى تلك الحراب الثلاث ، التى انغرست قواعدها فى العمق ، واتجهت أطرافها المسنونة إلى أعلى ..
إلى حيث يهبط جسد (مهاب) ..

★ ★ ★

استيقظ الملك (فرناندو) مبكرًا ، على غير العادة ، وجلس فى شرفة قصره ، يراقب السماء فى صمت ، دون أن يمس كأسه ، مما أثار اهتمام وقلق الملكة (إيزابيلا) ، فاتجهت بدورها إلى الشرفة ، ووقفت طويلًا خلفه ، تتطلّع إليه فى صمت ، ثم همست :
ـ هل تشتاق إليها ؟
جفل الملك لحظة ، على الرغم من انخفاض صوتها ، الذى اقتحم عليه خلوته ، ثم التفت إليها فى بطء ، وتطلّع إليها لحظة فى ضيق ، قبل أن يعود للتطلّع إلى السماء ، قائلًا :
ـ ماذا قلت ؟

كرّرت فى شىء من العصبية :
- هل تشتاق إلى (غالا) ؟
ابتسم فى سخرية ، دون أن يجيب ، فاقتربت منه أكثر ، وهى تقول :
- لا تظننى ساذجة أو غبية .. أنا أعرف ما بينكما إننى أشم عطرها فى حجرتك ، و ...
قاطعها فى لهجة تهكمية :
- وهل يصحّ أن تتحدّث (إيزابيلا) التقية ، بمثل هذا القول ؟
قالت فى حدة :
- سل نفسك يا ملك (قشتالة) .. هل يصحّ أن ينحدر الملك الورع إلى هذا الدرك ؟
ابتسم وهو يقول :
- جمال (غالا) يستحق كل التضحيات .
قالت غاضبة :
- بل دناءة نفسك هى التى تبيح لك كل الموبقات .
انعقد حاجباه فى شدة ، ثم قال وهو يضغط كل حرف من حروف كلماته :
- من حسن حظك أننى أنتظر حدثًا هامًا الآن ، وإلا لقنتك درسًا قاسيًا ، من أجل ما تلفظت به الآن .



ولم يكن الخطر كامنًا فى عمقها فحسب ، ولكن فى تلك الحراب الثلاث ..

هتفت فى استنكار :

ـ هل تجرؤ ...

بترت عبارتها بغتة ، عندما رأته يهبّ من مقعده ، وتتألق عيناه وهما تتابعان حمامة بيضاء صغيرة ، عبرت سماء ساحة القصر ، قبل أن تهبط عند برج الحمام ، فى الركن الشرقى من القصر ، وأدركت على الفور أن هذه الحمامة تحمل أنباء بالغة الخطورة ..

وفى لهفة ، هتف الملك :

ـ أخيرًا يا مليكتى .

واندفع نحو منضدة قريبة ، والتقط كأسه من فوقها ، وألقى محتوياته فى حلقه دفعة واحدة ، قبل أن يستطرد بوجه محتقن :

ـ لقد نجح هذا الجزء من خطتى .. نجح تمامًا .

سألته فى حذر :

ـ أية خطة ؟

قهقه ضاحكًا بشدة ، وصبّ لنفسه كأسًا أخرى ، رفعها عاليًا ، وهو يقول :

ـ الخطة التى ستفتح لنا الطريق يا مليكتى .

وبرقت عيناه فى شدة ، وهو يستطرد :

ـ الطريق إلى (غرناطة) .

وانطلقت من أعماقه ضحكة أخرى مجلجلة ..

★ ★ ★

انتفض جسد (فارس) كله ، مع تلك الصرخة ، التى أطلقها (مهاب) ، عندما سقط فى الحفرة العميقة ..

صرخة تحمل الدهشة ، والألم فى آن واحد ..

وعلى الرغم من أن (فارس) لم ير ما تحويه الحفرة ، إلا أنه اندفع نحوها بأقصى سرعة ، واتسعت عيناه فى ارتياع ، وهو يحدّق داخلها ..

كان (مهاب) قد سقط داخل الحفرة ، وحاول الالتصاق بجدارها ، لتفادى الحراب المصوّبة إليه ، إلا أن إحدى الحراب انغرست فى ساقه اليسرى ، فى حين مزّقت ثانية قميصه ، عند منتصف الصدر تمامًا ، ولوّثته بدماء جرح بسيط أحدثته به ..

وهتف (فارس) فى انزعاج :

ـ (مهاب) .. ماذا أصابك يا رجل ؟

انتزع (مهاب) الحربة من ساقه ، وهو يقول فى ألم :

ـ اطمئن يا فتى .. لم يحدث ما لا يمكن علاجه .

وتطلّع إلى الحربتين الأخريين ، قبل أن يضيف :

ـ ولكن ساعدنى فى الخروج من هنا ، وسندرس أمر العلاج فيما بعد .

انحنى (فارس) ، يمد له يده ، وهو يقول :

ـ تشبث بيدى يا صديقى .

أمسك (مهاب) يد (فارس) ، وهو يقول فى حنق :

ـ هؤلاء الأوغاد توقفوا ليصنعوا لنا فخًا .

قال (فارس) ، وهو يجذبه بكل قوته :

ـ سنجعلهم يدفعون الثمن ، عندما نصل إليهم .

دفع (مهاب) قدمه اليمنى فى جدار الحفرة ، ليعاون (فارس) على رفعه إلى أعلى ، وهو يقول :

ـ المهم أن ترفعنى بحذر يا فتى ، فلو أفلتت يدى ، سأسقط فوق الحربتين الأخريين ، وتنسى أمر علاجى إلى الأبد .

تمتم (فارس) ، وهو يجذبه فى قوة :

ـ اطمئن .. لن أدعك تسقط بإذن الله .

ولكن فجأة ، أطلق (رفيق) صهيلًا عاليًا ..

والتفت (فارس) فى سرعة إليه ..

وارتفع حاجباه فى دهشة وتوتر ..

فعلى بعد ثلاثة أمتار منه ، كان هناك رجلان يندفعان نحوه ، وكل منهما يرفع سيفه ، وينقضّ به عليه ..

وكان على (فارس) أن يختار ..

حياته أو حياة (مهاب) ..

وما من بديل ثالث .

★ ★ ★

٥ ـ خطوة بخطوة ..

داعب (محمد بن الأحمر) ، أمير (غرناطة) و (الأندلس الصغرى) لحيته ، وهو يتطلع مليًا إلى (غالا) ، قبل أن يقول فى هدوء رصين :

ـ ما تقولينه معقول للغاية يا بنيتى ؛ فـ (شنتفى) هى بالفعل أقرب النقاط إلى حدود القشتاليين ، ولست أثق قط بحاكمها (جهلان) ، ولكن هل تعلمين متى يتمّ الهجوم المرتقب ؟

أجابته (غالا) على الفور :

ـ فى الصباح التالى لاكتمال القمر يا مولاى .. لقد سمعت الملك (فرناندو) يقول : إنه سيهاجم بثلاث فرق فى البداية .. فرقتان من الشرق والغرب ، والثالثة فى المقدمة ، ثم يقوم بحركة التفاف ، ويدعم وجوده بفرقتين أخريين من الشمال .

زوى (ابن الأحمر) ما بين حاجبيه ، وهو يسألها :

ـ هل تفهمين شيئًا فى التخطيط الحربى يا بنيتى ؟

هزّت رأسها نفيًا ، وهى تجيب :

ـ مطلقًا يا مولاى .. إننى أردّد ما سمعته فحسب .

تضاعف انعقاد حاجبيه ، وعاد يداعب لحيته لحظات أخرى ، ثم قال :

ـ حسن يا بنيتى .. عودى إلى جناح الحريـم ، وسيكرمن وفادتك ، ويمنحنك جل رعايتهن وعنايتهن ، ولك مطلق الحرية فى التجوّل حيثما تشائين .

انحنت أمامه فى خنوع ، ثم سارت بين وصيفتين من وصيفات القصر إلى جناح الحريم ، ولم تكد تختفى ، حتى مال الأمير على وزيره ، وقال :

ـ ما رأيك فيما سمعته منها ؟

أجابه الوزير فى اهتمام :

ـ لو أنها بالفعل تجهل كل شىء عن التخطيط الحربى ، فروايتها صادقة من دون شك .

هزّ الأمير كتفيه ، وقال :

ـ ومن أين لوصيفة مثلها معرفة هذه الأمور ؟

قال الوزير :

ـ فى هذه الحالة يتحتم علينا أن نعد العدة لمواجهة الجيش القشتالى يا مولاى .

تنهّد الأمير وقال :

ـ مواجهة خمس فرق قشتالية .. آه .. إننا نحتاج إلى جيش كامل .

أومأ الوزير برأسه موافقا ، وقال :

ـ هذا صحيح يا مولاى .. إننا قد نحتاج إلى ثلاثة أرباع

جيشنا ، ولكن من حسن طالعنا أننا كشفنا هذا الأمر ، وعلمنا أين تتجه نية القشتاليين للهجوم .

صمت الأمير لحظات مفكّرا ، ثم قال :

ـ نعم .. لقد علمنا .

وطال صمته مرة أخرى ، وهو يداعب لحيته فى تفكير عميق ، قبل أن يقول :

ـ على أى حال ، ما زال أمامنا وقت لاتخاذ القرار .. إنهم سيهاجمون بعد خمس ليال ، والجيش يحتاج إلى يومين فحسب ، لبلوغ (شنتفى) .. ومن يدرى .. ربما وصلتنا أخبار تأكيدية ، قبيل هذا الموعد .. ربما .

وعاد إلى صمته وتفكيره العميقين ..

★ ★ ★

كان الموقف معقدًا بحق ..

بل شديد التعقيد ..

فـ (فارس) يجذب (مهاب) إلى خارج الحفرة ، التى تبرز فى قاعها حربتان ، فى تحفز تام لاختراق أوّل جسد يهوى إليها ، والرجلان يهاجمانه من الخارج ، وسيفاهما ينقضّان عليه بلا رحمة ..

وكان على (فارس) أن يتحرّك ..

وبأقصى سرعة ..

ودون تردد ، اكتفى (فارس) بيده اليسرى ، الممسكة بيد (مهاب) ، ووثبت يده اليمنى تستل سيفه ، دون أن ينهض من مكانه ..

وهتف أحد القشتاليين ساخرًا .

ـ سنقتلك راكعًا أيها العربى .

قالها وهو يلوّح بسيفه ، ليهوى به على عنق (فارس) ، فصرخ (مهاب) ، وهو يحاول دفع جسده إلى أعلى :

ـ أيها الأوغاد .

ولكن (فارس) ضرب بسيفه فى قوة ، فأصاب ساق القشتالى ، الذى صرخ فى ألم ، وهو يسقط أرضًا ، وأطلق سبابًا ساخطًا ، فانقضّ زميله على (فارس) بكل غضبه وسخطه ، وهو يصرخ :

ـ لن تفعلها مرة ثانية أيها العربى ..

وكان القشتالى على حق فى قوله هذا ..

(فارس) لن يفعلها ..

بل لا يمكنه أن يفعلها ؛ فالرجل يهاجم من زاوية صعبة ، وعسيرة المنال ، وجسد (مهاب) يتثاقل مع مرور الوقت ، والوضع الذى يتخذه فارس معقّد ، و ...

ورفع الرجل سيفه ، وهو يصرخ بكل قوته :

ـ خذها منى أيها العربى .. خذها واذهب إلى الجحيم ، الذى ..

وفجأة ، أطلق الرجل شهقة قوية ، بتر بها عبارته ، وجحظت عيناه فى شدة ، وارتجفت قبضته ، ثم ترنّح ، وسقط سيفه عند قدمى (فارس) ، قبل أن يهوى الرجل إلى جواره جثة هامدة ، انغرس سهم فيها من الظهر ، فى موضع القلب تمامًا ..

واتسعت عينا (فارس) لحظة فى دهشة ، ثم رفع عينيه بسرعة إلى ربوة بعيدة ، وهتف فى ارتياح :

ـ (فهـد) ..

كان الزنجى الصموت يعيد قوسه إلى كتفه ، ثم يجذب عنان جواده ، ويعود ليختفى خلف الربوة ، وكأنما اكتفى بمهمته المباشرة المحدودة ..

أما (فارس) ، فقد استجمع قواه ، وجذب (مهاب) إلى خارج الحفرة فى قوة ، وهو يهتف :

ـ إنه (فهد) يا (مهاب) .. (فهدٌ) كالمعتاد .

توتر القشتالى المصاب فى شدة ، وردّد فى عصبية :

ـ اللعنة .. لقد نسينا الزنجى .

ودفع جسده إلى الأمام ، فى محاولة لاستعادة سيفه ،

الذى سقط مع سقوطه ، ولكن (فارس) وثب نحوه ، وضرب السيف بسيفه ، فأطاح به بعيدًا ، وهو يقول :

- هيهات يا رجل .. سبق السيف العذل .

ثم وضع نصل السيف على عنق الرجل ، وهو يقول :

- والآن ، أعتقد أنك ستجيب بعض الأسئلة ، التى سألقيها على مسامعك .

قال الرجل فى حنق :

- اذهب إلى الجحيم .

جلس (مهاب) يضمد جراحه ، وهو يقول :

- اقتله فورًا ، ما دام يصرّ على الصمت .

ولكن (فارس) ، قال فى صرامة :

- سأمنحه فرصة واحدة .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يسأل الرجل :

- أين الشيخ ؟.. كيف نجده ؟

مطّ الرجل شفتيه ، وهو يشيح بوجهه فى صرامة ، فانقضّ عليه (فارس) فجأة ، وانتزعه من مكانه ، وجذبه فى قسوة إلى الحفرة ، وصاح الرجل :

- مهلًا أيها العربى .. إنك تؤذى ساقى المصابة .

ولكن (فارس) أمسكه من قميصه فى قوة ، وأمال جسده نحو الحفرة ، بحيث لا يمنعه من السقوط فيها سوى قبضة (فارس) الممسكة به ، وهو يسأله فى صرامة :

- أين شيخنا ؟.. وكيف يمكننا العثور عليه ؟

تصبّب عرق غزير على وجه الرجل ، وقال :

- إنك .. إنك لن تفعل .

رفع (فارس) سيفه ، ومزّق به جزءًا من قميص الرجل ، وهو يقول فى برود :

- أتؤمن بهذا حقًا ؟!

صرخ الرجل ، وهو يرمق الحربتين المسنونتين بنظرة رعب :

- لا .. لا تفعل .

وزمجر (مهاب) ، قائلًا :

- لا تضيع الوقت يا فتى .. هيًا .. ألقه فى الحفرة ولنواصل طريقنا .

صرخ الرجل :

- لا .. سأخبركما بكل ما تريدانه .. زميلان يحملان الشيخ إلى (شنتفى) ، حيث سيحتفظان به سجينًا فى قبو قصر حاكمها (جهلان) حتى .... هتف به (فارس) :

- حتى ماذا ؟

لوّح الرجل بذراعيه ، هاتفًا فى ارتياع :

- لا .. لا يمكننى إخباركما .

ونهض (مهاب) واقفًا ، وقد انتهى من تضميد جرح ساقه ، وقال :

فليكن .. إنك لم تخبرنا بما كنا نجهله .

جذب (فارس) الرجل ، وهو يقول :

ـ وهذا يكفينا .

لهث الرجل لحظة ، من فرط التوتر والانفعال ، ثم ألقى نظرة على زميله الصريع ، وغمغم فى سخط ناقم :

ـ ولكنه لا يكفينى .

ودفع يد (فارس) بعيدًا بغتة ، وهو يستل خنجرًا مخفيًا فى حزامه ، ويصرخ :

ـ لن يكفينى سوى قتلك أيها العربى .

تراجع (فارس) بحركة سريعة ، وحاول الرجل الانقضاض عليه ، إلا أن طرف الحفرة ، الذى يستند إليه ، انهار تحت قدميه بغتة ، فصرخ فى ارتياع :

ـ لا .. النجدة .

اندفع (فارس) نحوه ، محاولًا إنقاذه ، إلا أنه هوى فى الحفرة ، وأطلق صرخة مروعة ، عندما اخترقت الحربتان ظهره ، ونفذتا من بطنه ، وقتلتاه على الفور ..

وفى أسى ، غمغم (فارس) :

ـ لقد قتل نفسه .

صعد (مهاب) إلى صهوة جواده، وهو يقول فى صرامة:

ـ كان يستحق هذا .

وثب (فارس) بدوره على متن جواده ، دون أن يعلق بحرف واحد ، وعاود الاثنان انطلاقهما نحو الهدف .. نحو قصر حاكم (شنتفى) ..

★ ★ ★

« أريد أن أفهم ما يحدث .. »

نطقت الملكة (إيزابيلا) هذه العبارة فى صرامة شديدة ، تحمل رائحة الإصرار والعناد ، ولكن الملك (فرناندو) صبَّ لنفسه كأسًا من الخمر فى هدوء ، وحمله إلى الشرفة ، وهو يطالع الرسالة التى وصلته منذ قليل ، وقد تجاهل عبارتها تمامًا ، فاتجهت إلى الشرفة بدورها ، وقالت فى حدة :

ـ هل أصيب الملك بالصمم ، فى الآونة الأخيرة ؟

أجابها ساخرًا :

ـ نعم .. فيما يختصّ بالعبارات السخيفة .

انعقد حاجباها فى غضب ، وهى تقول :

ـ لقد تجاوزت حدودك .

قال متهكمًا :

ـ حقًّـا ؟!

صاحت به فى صرامة :

ـ نعم أيها الملك .. لقد تجاوزت حدودك حقًا ، ونسيت أننى ملكة (قشتالة) و (ليون) ، وأن نصف الجيش ، الذى تعده لمقاتلة العرب ، واستعادة مجد (الأندلس) المفقود ، يدين لى شخصيًا بالولاء ، وبإشارة واحدة منى ، يمكنه أن يتراجع وينسحب ، ونتركك وحدك بنصف جيش ، لتواجه جيوش العرب كلها .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يوليها ظهره ، ومضت لحظات من الصمت ، قبل أن يرسم على شفتيه ابتسامة مصطنعة ، ويلتفت إليها ، قائلًا :

ـ يا عزيزتى (إيزابيلا) .. كيف يمكن أن تتوتر الأمور بيننا إلى هذا الحد ؟

قالت فى غضب :

ـ يمكنك أن تسأل نفسك .

استدار إليها بجسده كله ، وهو يرسم تلك الابتسامة على وجهه ، وقال :

ـ بل أنت تضخمين الأمور دون داع يا عزيزتى .. إنه أمر بسيط ، وسأخبرك به حتمًا .

وناولها الرسالة مستطردًا :

ـ ها هى ذى الرسالة .. رجالنا يخبروننى أنهم نجحوا



ولكن الملك (فرناندو) صبَّ لنفسه كأسًا من الخمر فى هدوء ، وحمله إلى الشرفة ، وهو يطالع الرسالة التى وصلته منذ قليل ..

فى مهمتهم ، وأنهم فى طريقهم مع الوزير القرطبى السابق إلى (شنتفى) ، كخطوة أولى فى خطة معقدة ، وضعت أنا تفاصيلها بنفسى خطوة خطوة .

سألته فى اهتمام حذر :

ـ أية خطـة ؟

صبَّ كأسًا أخرى من الخمر ، وناولها إياها ، وهو يقول مبتسمًا :

ـ الأمر ليس بهذه البساطة .. إننا نحتاج إلى ساعة على الأقل ؛ لأشرح لك خطتى بكل تفاصيلها .

أزاحت يده جانبًا ، وهى تقول فى صرامة :

ـ أنت تعرف أننى لا أشرب الخمر .

ضحك ، قائلًا :

ـ آه .. لقد نسينا .. أنت (إيزابيلا) القديسة الورعة .

لم ترق لها سخريته ، فعادت تعقد حاجبيها ، إلا أنه استدرك فى سرعة :

ـ ولكن هذا أفضل بكثير ، فالخمر تذهب العقل وتزعزع الفكر .. والآن .. هل ترغبين فى معرفة خطتى .

قالت فى لهفة :

ـ بالتأكيـد .

ارتشف رشفة من كأسه ، وهو يقول :

ـ دون الدخول فى التفاصيل ، يكفى أن تعلمى أن خطتى ستحمل للعرب مفاجأة .

وبرقت عيناه ، وهو يستطرد :

ـ أكبر مفاجأة فى حياتهم .

وأطلق ضحكة مجلجلة أخرى .





٦ ـ حياة القصور ..

« وصلوا يا سيدى .. وصلوا »

هتف خادم القصر بهذه العبارة ، وهو يعدو عبر البهو ، نحو سيده (جهلان) ، الذى انتفض فوق مقعده ، وهو يقول :

ـ حقًا ؟!.. استعدوا لاستقبالهم إذن .

وجرى بدوره إلى الشرفة ، التى تطلّ على ساحة القصر، ورأى جوادين يعبران البوّابة الكبرى إليها ، وعلى متن أحدهما فارس ممشوق القوام ، صارم الملامح ، فى حين يستقر رجلان على صهوة الجواد الثانى ، وأحدهما مقيّد المعصمين ، مكمّم الفم ، تنهّد فى ارتياح ، قائلًا :

ـ أخيرًا .

وأسرع يستقبل الفارسين ، وهما ينزلان الشيخ ، واستقبل صاحب الملامح الصارمة ، وهو يهتف فى حرارة :

ـ مرحبًا أيها الفارس (خوان) .. أرى أن مهمتكم قد كللت بالنجاح .

رمقه (خوان) بنظرة ازدراء ، وهو يقول :

ـ وهل كنت تشكّ فى ذلك ؟

هتف (جهلان) :

ـ مطلقًا .. مطلقًا يا سيّد (خوان).. ولكن.. هل.. هل..

وخفض صوته ، مستطردًا فى قلق :

ـ هل رآكما أحد ، وأنتما تأتيان إلى هنا ؟

أجابه (خوان) فى حزم :

ـ كفى قلقًا يا رجل .. إننا نرتدى ثيابًا عربية ، وكل شىء يسير على ما يرام .

قال فى توتر :

ـ حسن .. حسن .. انقلا الوزير بسرعة إلى القبو .. هيًا .

ولم تمض دقائق ، حتى كانوا يقيدون الشيخ داخل القبو ، ويرفعون عنه كمامته ، فتطلّع فى هدوء إلى (جهلان) ، وقال :

ـ إذن فما زلت تذكرنى يا (جهلان) .

ابتسم (جهلان) فى تشف ، وهو يقول :

ـ وكيف أنساك أيها الوزير ؟.. ألست من حرمنى الفوز بإمارة (بسطة) ذات يوم ؟

قال الشيخ فى رصانة :

ـ أظن هذا الموقف يؤكّد أننى كنت على حق .

انعقد حاجبا (جهلان) ، وهو يقول :

ـ اخرس أيها الوزير .. لسنا الآن فى قصر أميرك المغرور فى (قرطبة) .. إنك هنا فى قبضتى ، وتحت رحمتى .

لم يبد الخوف على وجه الشيخ ، وهو يقول :

ـ كلنا تحت رحمة الخالق (عزَّ وجلَّ) .

اندفع (جهلان) نحوه ، وجذبه من قميصه ، قائلًا :

ـ بل أنتَ هنا فى قبضتى أيها الشيخ ، وأنا وحدى أملك حياتك أو موتك .

قال الشيخ فى هدوء :

ـ ربما لا يستمر هذا الوضع إلى الأبد .

أطلق (جهلان) ضحكة عصبية ، وهو يقول :

ـ لو أنك تنتظر محاولة إنقاذ من رفاقك فأنت واهم .. لو حضر جيش (ابن الأحمر) كله ، لما أمكنه إنقاذك .. هل تعرف لماذا ؟

ثم تراجع ، ولوَّح بذراعيه ، هاتفًا :

ـ إنك داخل قبو مغلق ، ليس له سوى مدخل واحد ، يحرسه عشرة من أقوى وأشد رجالى ، وهذه الفتحات التى تراها فى الجدار ، تتصل مباشرة بتلك البركة الكبيرة ، فى ساحة القصر ، ويكفى جذب ذراع معدنية صغيرة ، لتنفتح

أبواب سرية فى قاع البركة ، وتتدفق مياه البركة كلها إلى القبو ، فتغمره كله ، وتغرقك داخله كالفأر الحبيس .

أدرك الشيخ أن ما وصفه (جهلان) يعنى أنه فى موقف حرج بالفعل ، إلا أنه أخفى قلقه فى أعماقه ، وحافظ على هدوء ملامحه وصوته ، وهو يقول :

ـ الله (سبحانه وتعالى) أقوى من الجميع يا (جهلان) .

بدا لحظة أن (جهلان) سينفجر فى وجه الشيخ ، لولا أن قال (خوان) فى صرامة :

ـ كفى .. لا وقت لهذه المهاترات السخيفة .

انعقد حاجبا (جهلان) لحظة ، قبل أن يقول فى حنق :

ـ أنت على حق .. لا وقت للمهاترات .

واندفع يغادر القبو فى خطوات واسعة سريعة ، وهو يرفع عقيرته ، صائحًا :

ـ لو حاول أحدهم إنقاذ هذا الشيخ ، فلا تترددوا فى ذبحه .

ابتسم (خوان) فى سخرية ، وقال وهو يتطلع إلى الشيخ :

ـ لو أن الأمر بيدى ، لذبحتك الآن وبلا تردد أيها الوزير السابق ، ولكن ملكنا (فرناندو) يصرّ على رؤيتك بنفسه ، عندما تسيطر جيوشنا على ما تبقى من أرضنا الأندلسية .

قال الشيخ :
- وهل ملككم صبور إلى هذا الحد ؟
أطلق (خوان) ضحكة ساخرة ، وقال :
- بل أنت الجاهل أيها الوزير .
ثم مال نحوه ، حتى امتزجت أنفاسهما ، وهو يتطلّع إلى عينيه ، مستطردًا فى شماتة :
- من الواضح أنك لا تعلم أن جيوشنا ستجتاح ما تبقّى من (الأندلس) ، بعد أربع ليال فحسب .
ثم تراجع مقهقهًا فى جذل ظافر ، فى حين عقد الشيخ حاجبيه فى شدة ، وقد بدأ قلبه يشعر بالخوف الحقيقى لأوّل مرة ..
الخوف من الضياع ..
ضياع (الأندلس) ..

★ ★ ★

بذل (مهاب) قصارى جهده ، واستنفر كل إرادته ، ليحتمل آلام ساقه اليسرى ، وجواده ينهب به الطريق ، إلى جوار جواد (فارس) ، إلا أن جسده لم يستطع الاحتمال إلى ما لا نهاية ، فلم يلبث أن أطلق صرخة ألم ، وهو يهتف بـ (فارس) :
- رويدك يا فتى .. ساقى لم تعد تحتمل .
كان (فارس) يتمنى مواصلة الطريق حتى النهاية ،

إلا أنه لم يملك سوى التوقّف ، إيمانًا منه بأن القافلة لا تسير إلا بقدر احتمال أضعفها ، فتوقّف ، والتفت إلى (مهاب) ، ليسأله عن حال ساقه ، ولكنه لم يكد يتطلّع إليها ، حتى هتف فى انزعاج :
- ربّـاه !
كانت الضمادات التى تلف ساق (مهاب) قد اتسخت ، وتلوّثت ، وانتشرت فيها بقعة ضخمة من الدماء ، جعلت (فارس) يستطرد :
- ولكنك تنزف يا صديقى .
هزّ (مهاب) كتفيه ، وقال فى ألم :
- حقًا ؟!
وثب (فارس) عن جواده ، وأسرع إليه يعاونه على الهبوط ، ثم أرقده أرضًا ، و (مهاب) يقول فى تهالك :
- اننا نضيع وقتًا طويلًا .. سنتوقّف لحظات ، ثم نعاود السير .
لم يعلّق (فارس) على عبارته ، وإنما رفع الضمادات بسرعة عن ساقه ، وسمعه يتأوّه ، وهو ينزع عنه الجزء الأخير منها ، ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلّع إلى الجرح .
كانت الدماء تواصل نزيفها ، وتغرق ساقه كلها ،

وبعضها يتجلط حول الجرح وأسفله ، فى حين راح عرق غزير يتصبّب على وجه (مهاب) ، وهو يقول :
ـ الشيخ .. إننا لن نتخلّى عن الشيخ .. أليس كذلك ؟
تحسّس (فارس) جبهة (مهاب) ، ثم هتف فى هلع :
ـ يا للهول !.. إنه محموم .
وراح يتلفّت حوله ، هاتفًا فى أسى :
ـ ماذا أفعل الآن ؟.. كيف يمكننى إنقاذه ؟
بدا (مهاب) متهالكًا على نحو عجيب ، وهو يقول :
ـ ارحل يا فتى .. اتركنى وارحل .. أنقذ شيخنا .
ثم تراخى جفناه ، وتضاعف العرق المتصبّب على جبينه ، وأدرك (فارس) الحقيقة المؤلمة ..
إن (مهاب) يلفظ أنفاسه ..
أنفاسه الأخيرة ..

★ ★ ★

اعتدلت الأميرة (جميلة) ، تتطلّع فى اهتمام إلى وصيفتها (نذيرة) ، التى دلفت إلى جناحها فى خفة ، وأشارت إلى باقى الوصيفات بالانصراف ، حتى أصبحت وحدها مع الأميرة ، فسألتها هذه الأخيرة فى لهفة :
ـ ماذا لديك يا (نذيرة) ؟
مالت (نذيرة) على أذن الأميرة ، وهمست :

ـ لقد خرجت إلى السوق .
اعتدلت (جميلة) ، وسألتها :
ـ وماذا فعلت هناك ؟
تنهّدت (نذيرة) ، وقالت :
ـ لا شىء .. لقد تجوّلَتْ فى السّوق ، وتحدثت إلى بعض البائعين ، ثم عادت إلى القصر ، وقبعت فى حجرتها منذ ذلك الحين .
انعقد حاجبا الأميرة ، وبدت على وجهها علامات التفكير لحظات ، قبل أن تهزّ رأسها ، قائلة فى توتر :
ـ لا يمكننى أن أثق بهذه المرأة .. ولست أدرى كيف سمح لها والدى بالتجوال بمنتهى الحرية ، على هذا النحو.
قالت (نذيرة) :
ـ مولاى الأمير له نظرته الحكيمة للأمور يا مولاتى .
ظلّت الأميرة عاقدة حاجبيها لحظات ، ثم غمغمت :
ـ ليتنى أدرك ما يدور فى أعماقه .
وتنهّدت فى قوة ، ثم مالت تتطلّع إلى ساحة القصر ، من نافذة جناحها ، وهى تستطرد :
ـ إنه لم يعتد منح ثقته للقشتاليين على هذا النحو .
قالت (نذيرة) :
ـ ولكنها هاربة من قومها كما يقولون ، ويبدو أنها نقلت بعض أسرارهم إلى مولاى الأمير .

هتفت (جميلة) :

ـ هى خائنة لقومها إذن ، ومن الخطأ أن نثق بخائنة ، حتى ولو كان ما فعلته لصالحنا ، فالتى تخون قومها ، لا تتورع قط عن خيانة أى كائن كان .

وصمتت لحظات ، قبل أن تستطرد فى حزم :

ـ واصلى مراقبتها يا (نذيرة) .. اسعى لمعرفة كل خطوة تخطوها ، وكل قول تتفوه به ، فهذه الأفعى تخفى حتمًا سرًا خطيرًا ، ومهمتنا هى معرفته ، وفضح أمرها أمام الجميع .

ثم رفعت رأسها فى اعتداد ، مضيفة :

ـ وهذا ما سأحيا من أجله .

تطلعت إليها (نذيرة) ، وهى تنطق عبارتها الأخيرة ، وخفق قلبها بين ضلوعها ..

لقد نطقتها بحزم وكبرياء أميرة ..

أميرة عربية ..

★ ★ ★

خفق قلب (فارس) فى قوة ، وهو يهز (مهاب) فى رفق ، هاتفًا :

ـ (مهاب) .. استيقظ يا صديقى .. استعد وعيك .. لقد بلغنا الهدف تقريبًا .. إننا على مسيرة نصف الساعة من (شنتفى) .. قاوم يا صديقى .

فتح (مهاب) عينيه فى صعوبة ، وحدق فى وجه (فارس) لحظة ، ثم قال فى حدة :

ـ ألم تذهب بعد ؟.. قلت لك : اتركنى .

أجابه (فارس) فى حزم ، وهو يعاونه على النهوض :

ـ محال يا صديقى .. محال .. لو أنك فى موضعى لما تركتنى قط .. محال .

ساعده (فارس) على الوقوف على قدميه ، ولكنه ترنح ، وهو يقول :

ـ ولكن الشيخ ..

ثم تهاوى ساقطًا ، لولا أن تشبث به (فارس) ، وهو يقول فى توتر :

ـ ربَّاه .. إنه مريض للغاية .

وفى حزم ، حمله (فارس) ، وأرقده على ظهر جواده ، ثم وثب إلى متن (رفيق) ، وأمسك لجام جواد (مهاب) ، وهو يقول :

ـ هيا يا (رفيق) .. دعنا ننقذ معلمى .

وانطلق ينهب الأرض بجواده ، ويهتف فى أعماقه :

ـ أنقذه يا إلهى !.. عاونه ..

كان يشعر بالقلق ، مع ارتجاج جسد (مهاب) فوق جواده ، إلا أنه لم يتوقف عن العدو ، حتى لاحت له أبواب

(شنتفى) ، وعبرها فى سرعة ، وهو يسأل أحد رجال الحراسة :

ـ صديقى محموم .. أين يمكننى إسعافه ؟

تطلّع إليه الحارس فى شك ، وأدهشه ثوبه الأبيض ، وحرملته الخضراء ، وخوذته الفضية ، ولكنه أجاب فى حذر :

ـ هناك .. فى نهاية السوق ، ستجد منزل الحكيم (همام) .

هتف (فارس) ، وهو يعدو بالجوادين :

ـ أشكرك يا رجل .

لم يستغرق عثوره على الحكيم (همام) أكثر من ربع الساعة ، ولقد استقبله ذلك الشيخ الوقور فى اهتمام ، وتطلّع إلى ثيابه الملفتة للنظر ، والتى جعلته يبدو أشبه بأمراء (الأندلس) ، ثم سأله :

ـ ماذا لديك يا ولدى ؟

حمل (فارس) جسد (مهاب) ، وهو يقول :

ـ صديقى مصاب بجرح عميق ، أورثه حمى أفقدته الوعى .

هتف به الحكيم :

ـ احمله إلى الداخل .. هيا .



وفى حزم ، حمله (فارس) ، وأرقده على ظهر جواده ..

وراح الحكيم يفحصه فى اهتمام بالغ ، ثم قال :

ـ لقد اتسخ الجرح ، ويبدو أن الشىء الذى سبّبه كان مسمومًا ، ولكننا سنعالج كل هذا بإذن الله .

ولم تمض لحظات ، حتى كان هناك خمسة من شباب البلدة يلتفون حول (مهاب) ، فأحدهم يغسل جراحه بماء دافئ ، والثانى يجففها ويضع عليها بعض حبوب البن المسحوقة ، والثالث يعاون الحكيم على فحصها ، والرابع يعد مزيجًا من الثوم والعسل ، والخامس يسحق بعض الأعشاب الجافة ، ويمزجها ببعضها ، و (فارس) يراقب كل هذا فى قلق ، قبل أن يسأل :

ـ هل سيشفى ؟

أجابه الحكيم فى هدوء :

ـ بإذن الله يا ولدى .. بإذن الله .

راقبهم (فارس) وهم يدهنون الجراح بمزيج الثوم والعسل ، ويضيفون إليها بعض مسحوق الأعشاب ، ثم يسقون (مهاب) مشروبًا صنعوه من غلى جزء آخر من المسحوق ، وبعدها ألبسوه ثيابًا جافة ، وراحوا يضعون كمادات مبلّلة على جبهته وذراعيه ، وتنهّد الحكيم ، وهو يربت على كتف (فارس) ، قائلًا :

ـ اطمئن يا (فارس) .. سيشفى بإذن الله ، ولكنه يحتاج إلى نوم عميق حتى صباح الغد .

تطلّع إليه (فارس) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ هل تعرفنى يا سيّدى ؟

ابتسم الحكيم (همام) ، وقال :

ـ الأنباء تتناقل فى سرعة يا ولدى ، وليس من الممكن أن يخطئ المرء ثيابك المميّزة ، التى يتناقلون وصفها كالأساطير ، ولا بطولاتك الفذة ، التى يردّدها الجميع ، ليجدوا فيها لمحة نصر ، تنتزعهم من أنياب شعورهم الدائم بالهزيمة ، بعد أن انتزع منا القشتاليون ثلاثة أرباع (الأندلس) ، ويقفون متربصين لنيل ما تبقّى منها .

واتسعت ابتسامته ، وهو يستطرد :

ـ ثم إننى كنت الطبيب الخاص لأمير (قرطبة) ، رحمه الله ، وأنت نسخة طبق الأصل منه ، فى ملامحه وثيابه .

هتف (فارس) :

ـ إذن فأنت تعرف والدى .

كان يرغب فى إلقاء عشرات الأسئلة على الحكيم ، لولا أن انفتح الباب فى هذه اللحظة ، وظهر على عتبته شاب يهتف :

ـ أنباء هامة فى قصر الخائن .. لقد ..

وبتر عبارته بغتة ، عندما وقع بصره على (فارس) ، وارتبك فى شدة ، ولكن الحكيم قال فى هدوء :

ـ ادخل وأغلق الباب خلفك يا ولدى ، وأكمل ما لديك فى أمان .

أطاعه الشاب ، واقترب منهما ، قائلًا فى انفعال :

ـ لقد أحضروا شيخًا وقورًا إلى قصر الخائن ، وسجنوه فى القبو ، وأقاموا حوله حراسة مكثفة .

هتف (فارس) :

ـ شيخنا .. هل تعرف أين هو بالضبط ؟

عقد الحكيم (همام) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ شيخكم ؟!.. هل تقصد ذلك الوزير ، الذى ... ؟

لم يتم عبارته ، ولكنه التفت إلى الشاب ، وسأله :

ـ هل رأيته بنفسك ؟

أجابه الشاب :

ـ نعم .. لقد أحضره رجلان غريبان فى الصباح ، ويقال إنهما قشتاليين .. وحملاه مع (جهلان) الخائن إلى القبو ، ثم غادره الثلاثة ، وتركوا عشرة رجال لحراسة مدخل القبو الوحيد .

هتف (فارس) فى حزم :

ـ يا للأوغاد .. لابد من إنقاذه على الفور .

قال الحكيم فى توتر :

ـ لن يمكنك مواجهة عشرة من الفرسان وحدك يا بنى .

وانبرى الشاب ، قائلًا فى سرعة :

ـ وليت الأمر يقتصر على الفرسان العشرة .. ولكن الخائن (جهلان) أوصل القبو عبر عدة قنوات ، ببركة ضخمة من المياه ، فى ساحة قصره ، ولو حدث هجوم لإنقاذ الشيخ ، يكفى أن يجذب أحد الفرسان العشرة ذراعًا معدنية صغيرة ، فتغمر المياه القبو ، وتغرق الشيخ على الفور .

انعقد حاجبا (فارس) فى شدة ، فى حين تابع الشاب فى أسى :

ـ وهذا يعنى أن إنقاذ الشيخ مستحيل .. مستحيل تمامًا .

وكانت ضربة قاسية .

* * *



٧ ـ المستحيل ..

رفع (خوان) ، الفارس القشتالى كأسه عاليًا ، فى وجه (جهلان) ، وهو يقول فى حماس جهورى :

ـ نخب (قشتالة) .

ارتجف (جهلان)، وتلفت حوله فى ذعر، وهو يغمغم :

ـ رويدك يا سيّد (خوان) .. إنك تقف الآن فى قلب (الأندلس) .

جرع (خوان) كأسه دفعة واحدة ، ثم ابتسم فى سخرية ، وهو يقول :

ـ اطمئن يا رجل .. لن يستمر هذا طويلًا .

قال (جهلان) بصوت متوتر :

ـ فلنخفض أصواتنا إذن ، حتى ذلك الحين .

تبادل (خوان) نظرة ساخرة مع زميله ، ثم قال :

ـ هل تعتقد أنهم سيحاولون إنقاذ ذلك الوزير ؟

أجابه (جهلان) بسرعة :

ـ بالتأكيد .

ثم برقت عيناه ، وهو يستطرد :

ـ لقد أبلغنى جواسيسى أن الفارس الأبيض قد وصل إلى (شنتفى) بالفعل ، وكان يحمل زميله المصاب ، وهما الآن فى دار الحكيم (همام) .

قال (خوان) فى صرامة :

ـ وماذا تنتظر إذن ؟.. اقتحم دار هذا الحكيم ، واقتلهما على الفور .

قال (جهلان) :

ـ ليس هذا بالأمر اليسير يا سيّد (خوان) .. صحيح أننى الحاكم هنا ، ولكن الحكيم (همام) له شعبية جارفة ، وعدد لا بأس به من الأتباع ، واقتحام داره بالقوة سيثير ثائرة القوم ، ويدفعهم إلى ارتكاب حماقات ، نحن فى غنى عنها هذه الأيام .

قال (خوان) فى حدة :

ـ شدّد الحراسة على مداخل وأسوار القصر إذن .

ابتسم (جهلان) فى مكر ، وهو يقول :

ـ دع هذا الأمر لى .

ثم استطرد فى سرعة ، وكأنه يرغب فى تغيير دفة الحديث :

ـ ولقد وعدتمونى بنوال عرش (الأندلس الصغرى) ، بعد دخول جيوشكم إليها ، وأنتم قوم شرفاء ، توفون بعهودكم دائمًا .. أليس كذلك يا سيّد (خوان) ؟

وضع القشتالى الثانى (كارلوس) يده على فمه ، ليخفى ضحكة كادت تنفجر من حلقه ، فى حين ارتسمت

على شفتى (خوان) ابتسامة واسعة ، تحمل شيئًا يسيرًا من الخبث والسخرية . وهو يقول :

ـ بالتأكيد يا حاكم (شنتفى) .. ستنال منا حتمًا ما تستحقه .

وضاقت عيناه ، وهو يستطرد ساخرًا :

ـ ما تستحقه بالضبط .

ثم رفع كأسه الجديد ، وهتف :

ـ والآن .. نخب (قشتالة) .

وفى هذه المرة ، ردّد (جهلان) معه القسم .

ودون حذر ..

★ ★ ★

مالت الشمس إلى المغيب ، وراحت تغوص تدريجيًا فى بطء ، خلف أبراج قصر حاكم (شنتفى) ، و (فارس) يراقبها فى شرود ، من نافذة دار الحكيم (همام) ، الذى جلس يراقبه بدوره فى صمت ، حتى مال عليه أحد مساعديه ، وهمس :

ـ إنه لم ينبس بحرف واحد ، ولم يغادر مكانه هذا ، منذ ساعة كاملة .

ابتسم الحكيم ، وهو يتمتم :

ـ كم يذكّرنى بوالده (رحمه الله) ، فى هذه الوقفة ، التى كان يرتب بها أفكاره ، ويدرس قراراته القادمة .

ثم نهض من مقعده ، مستطردًا فى خفوت :

ـ كانت تنتهى دائمًا بخطة جديدة .

واقترب فى حذر من النافذة ، وسأل (فارس) فى هدوء :

ـ ألن تتناول شيئًا من الطعام يا ولدى ؟

التفت إليه (فارس) ، وحدّق فى وجهه لحظة ، قبل أن يقول :

ـ آه .. أشكرك يا سيّدى .. لست أشعر بعد بالجوع .

ثم اعتدل ، وسأله فى اهتمام :

ـ قل لى أيها الحكيم : هل يمكننى الحصول على معاونة ، لدخول قصر الحاكم ؟

سأله الحكيم :

ـ ومتى تنوى أن تفعل ؟

أجابه على الفور :

ـ الليلة ، لو أمكننا هذا .

مطّ الحكيم شفتيه ، وانعقد حاجباه طويلًا ، وهو يفكر فى عمق ، ثم قال :

ـ يمكننا تدبير هذا إلى حد ما ، ولكنه لن يكون بالأمر السهل ، فالقصة التى رويتها لى تعنى أن الحاكم ينتظر ويتوقع حضور بعضكم ، فى محاولة لتخليص الوزير

واستعادته ، ولا ريب أنه قد اتخذ أهبته ، وأعدَّ العدة لملاقاتكم ، وستجد الحراسة مشدَّدة .

قال مساعد الحكيم فى قلق :

ـ وكما أخبرتك .. الوصول إلى الوزير مستحيل !

أجابه (فارس) فى حزم ، وهو يشير إلى رأسه :

ـ لا يوجد مستحيل ، ما دام هذا فى موضعه .. إنهم يمكرونَ ويخططون ، ونحن نمكر ونخطِّط ، والله (سبحانه وتعالى) يفعل ما يريد فى النهاية .

ثم تحرَّك فى الحجرة ، مستطردًا :

ـ كل ما فى الأمر هو أننا نواجه قوة غاشمة ، تستعد تمام الاستعداد لمواجهة محاولة هجوم واضحة ، ولكننا سنضربهم من حيث لا يتوقعون ، فنربكهم ، ونزلزل نفوسهم ، ونهزمهم بإذن الله (عزَّ وجلَّ) .

قال الشاب فى اهتمام :

ـ ألديك خطة محدودة ؟

ابتسم (فارس) ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

بدت ابتسامته غامضة ذكية ، ثم لم يلبث أن سأل فى اهتمام بالغ :

ـ والآن هل لدينا رجل أو رجلين داخل القصر ، يمكن إبلاغهم رسالة عاجلة ؟

أجابه الحكيم :

ـ نعم .. وسنرسلها إليهم فى التو واللحظة ، قبل إغلاق أبواب القصر .

بدا الارتياح على وجه (فارس) ، وهو يقول :

ـ عظيم .. بقى إذن أمر واحد .

سأله الشاب :

ـ وما هو ؟

برقت عينا (فارس) ، وهو يقول :

ـ أريد منكم أن تردِّدوا أننى أريد (فهذا) فى القصر .

تبادل الحكيم والشاب نظرة دهشة، قبل أن يقول الحكيم:

ـ ما الذى تعنيه بهذا ؟

ابتسم (فارس) ، وهو يقول :

ـ إنها مجرَّد رسالة .

وعاد يتطلَّع إلى الشفق ، الذى تلوَّن بألوان الغروب ، وهو يستطرد :

ـ رسالة تعنى الكثير .. والكثير جدًّا .

واتسعت ابتسامته أكثر ..

★ ★ ★

سرى الأمر فى سرعة ، فى سوق المدينة ، بعد غروب الشمس مباشرة ، وراح الناس يتهامسون به ، وينقلونه

من واحد إلى آخر ، وإن أثارت العبارة حيرتهم ، وراحوا يتساءلون عما يعنيه وجود فهد فى القصر ، ولم يتوصّل أى رجل منهم إلى تفسير منطقى لهذا ..

فيما عدا رجل واحد ..

عملاق زنجى صموت ، وصل إلى البلدة فى الصباح ، على متن جواد حالك السواد ، وذاب وسط زحام السوق ، وهو يحوم حول قصر (جهلان) ، ويدرس مداخله ومخارجه ، وارتفاعات أسواره وأبراجه ..

وفى المساء بلغته العبارة ..

وفهمها على الفور ..

وفى حزم ، جذب عنان جواده ، واتجه إلى قصر الحاكم ، وقد عقد العزم على الدخول إليه ، مهما كان الثمن ..

ولكن أحد رجال الحاكم انتبه إلى وجوده ، فمال على أذن زميله ، وهمس فى توتر :

ـ انظر .. أقسم بآبائى وأجدادى أنه ذلك الزنجى ، الذى حذرونا منه .

هتف زميله فى انفعال :

ـ نعم .. إنه هو بلا شك .. أبلغ الرجال ، وتعال نهاجمه على الفور .

ضغط الأوّل يده ، وهو يقول :

ـ كلّا .. انتظر .. لو أن ما أبلغونا به صحيح ، فهذا الزنجى ليس هينًا .. إنه يحتاج إلى خدعة متقنة ، لإيقاعه فى فخ محبوك .

اعتدل زميله ، وهو يقول :

ـ صدقت ..

لم يسمع (فهد) حديثهما ، وهو يدور حول القصر ، ويبحث عن وسيلة للدخول إليه ، ثمّ لم يلبث أن عثر على ممر ضيق ، يفصل أحد أسوار القصر عن بيوت الحرّاس ، فدلف إليه بجواده ، وهو يقيس ارتفاع الأسوار بعينيه و ...

وفجأة ، أطبق الفخ فكيه ..

أكثر من عشرين رجلًا ، أغلقوا الممر من الجانبين ، وكل منهم يحمل سيفه ومجنّه ، وعلى رأسهم الرجل الذى كشف وجوده فى البداية ، والذى قهقه ضاحكًا ، وهو يقول :

ـ انتهى الأمر أيها الزنجى .. لقد سقطت فى الفخ .

ولكن (فهد) لم يضع لحظة واحدة ..

لقد أحاط به الرجال من الجانبين ، فى محاولة لمباغتته ، والإفادة من عامل المفاجأة وتأثيره ، إلا أن (فهد) أطلق



وشهق الفرسان فى دهشة أقرب إلى الذهول ، عندما عبرهم الجواد الأدهم بوثبة نادرة واحدة ..

فجأة صرخته المخيفة الرهيبة ، التى تزلزل قلوب أعتى الرجال ، ثم انقضَّ على الجميع كالإعصار ..

إعصار عاتٍ رهيب ، تمثَّل فى سيف صارم بتار ، راح يهوى على الصدور والأعناق بلا رحمة أو تردّد ..

وأدرك رجال (جهلان) أنهم أمام وحش كاسر ، وعملاق لا يشقّ له غبار ..

لقد قاتلوه بسيوفهم ورماحهم ، وجرحوا صدره وساقه ، وذراعيه ، وسالت الدماء من جسده كالسيل ، ولكن سيفه لم يتوقَّف ، وعزيمته لم تهن ، حتى أنه أجبرهم جميعًا على التراجع أمامه ، فهتف قائدهم .

ـ السهام .. ارموه بسهامكم .

جذب كل منهم سهمًا من جعبته ، ولكن جواد (فهد) انقضّ عليهم فى بسالة ، قبل أن يجذب (فهد) عنانه ، فيطلق صهيلًا عاليًا ، ثم يثب فوق رءوس الجميع ..

وشهق الفرسان فى دهشة أقرب إلى الذهول ، عندما عبرهم الجواد الأدهم بوثبة نادرة واحدة ، ثم انطلق براكبه يشقّ ظلام الليل ، ويذوب فيه تمامًا ..

.. وهتف أحد الرجال فى سخط :

ـ اللعنة ! لقد هرب .

أجابه قائده فى غضب صارم :
ـ ولكنه لن يبتعد كثيرًا .. لقد أصبناه بجراح تكفى لقتل ثور هائج .. إنها مسألة وقت فحسب ..
وكان هذا هو المخيف فى الأمرْ ..
إنها مسألة وقت ..

★ ★ ★

لم يغمض للحاكم (جهلان) جفن ، طوال تلك الليلة ..
لقد قضى نصف الليل متطلّعًا عبر نافذته ، إلى مدخل القبو ، الذى يسجن فيه الشيخ ، حتى أن زوجته قالت فى ضجر :
ـ هل ستظل هكذا طويلًا ؟
غمغم فى توتر :
ـ أخشى أن يحاولوا استعادة الوزير .
قالت فى حنق :
ـ وما الذى سيفعله وقوفك هكذا ؟!.. ألا تثق بهؤلاء العمالقة العشرة ، الذين تركتهم لحراسة القبو ؟
مطّ شفتيه ، وهو يقول :
ـ إنهم أفضل رجالى .
هتفت :
ـ ماذا إذن ؟

تنهّد فى عمق ، ثم هزّ رأسه ، وغمغم :
ـ لست أدرى .. إنه القلق فحسب .
عادت إلى فراشها ، وهى تقول فى ضجر :
ـ لو أننى فى مكانك لقتلته واسترحت .
قال فى مقت :
ـ كم تمنيت هذا ، ولكن السيِّد (خوان) يصرّ على بقائه على قيد الحياة ، ليقدِّمه بنفسه إلى الملك (فرناندو) .
عقدت حاجبيها ، وهى تقول :
ـ هل تثق بـ (فرناندو) هذا ؟
صمت لحظات ، ثم قال :
ـ ليس أمامى سوى أن أثق به .. إنه سيحتلّ (غرناطة) ، إن آجلًا أو عاجلًا ، ولست أحبُ أن ألعب دور الأسير حينذاك .
زفرت فى توتر ، ثم قالت :
ـ حسن .. ستكشف الأيام ما إذا كنت قد أصبت أم أخطأت .. والآن ألن تنام قليلًا ؟.. ستشرق الشمس بعد ساعة على الأكثر .
ألقى نظرة أخرى متوترة على الساحة والفرسان العشرة ، الذين يحرسون مدخل القبو ، ثم غمغم :

ـ نعم .. لابد للمرء من بعض النوم .

وعاد إلى الفراش ، ولكن النوم أبى أن يزور جفنيه ..

ولم يكن هذا حاله وحده ..

لقد قضى رجال الحراسة الليلة كلها فى انتباه زائد ، وبأعصاب مشدودة كوتر القوس ، تكاد تتمزق مع أدنى ضغط ..

ثم أذن الفجر ، وبدأت الشمس تستعد للشروق ، وانطلقت العصافير تنشد أنشودة الصباح الأبدية ..

وفى تلك اللحظات بالذات يأتى النوم بكل قوته ، ليداعب الجفون المثقلة ، بعد طول سهر وتوتر ..

وتراخت الأجفان بعض الشىء ، وخيم هدوء تام على القصر ..

فيما عدا البرج الغربى ..

ففى أعلى البرج تسلل رجلان من رجال الحكيم (همام) ، وهما يحملان لفة ضخمة من الحبال ، فربطا طرفها فى حاجز نافذة البرج فى إحكام ، ثم ألقيا طرفها الآخر إلى أسفل ..

وهناك كان يقف (فارس) ، الذى تلقى طرف الحبل ، ثم تشبث به ، وراح يتسلق البرج فى سرعة وخفة ، حتى بلغ نافذته ، فوثب عبرها إلى داخله ، وسأل الرجلين فى اهتمام :

ـ هل أعددتما كل شىء ؟

أجابه أحدهما :

ـ كل شىء على ما يرام .

هبط الثلاثة فى سرعة إلى باب البرج ، الذى يطل على الساحة ، فتطلع (فارس) من فرجته إلى الفرسان العشرة ، وغمغم :

ـ ومتى يبدأ العمل ؟

أجابه أحد الرجلين :

ـ مع اكتمال شروق الشمس .

لاذ (فارس) بالصمت عدة دقائق ، وهو يراقب الشفق ، حتى هتف أحد الرجلين فى انفعال :

ـ الآن .

لم يكد يتم عبارته ، حتى اندلعت النيران فى البرج المقابل ، حيث حجرة الحاكم ، وظهر رجل يصرخ فى ارتياع :

ـ النجدة .. إلىّ يا رجال .. إنهم يهاجمون الحاكم .

لم يكد الفرسان العشرة يسمعون هذا الهتاف الاستنجادى ، ويرون النيران المندلعة من النوافذ ، حتى هبّ ستة منهم لنجدة الحاكم ، فاندفعوا إلى البرج ، فى حين بقى الأربعة الآخرون لحراسة القبو، فهتف (فارس) :

ـ انطلقا .

ودفع باب البرج ، وانقضَ فى بسالة على الفرسان الأربعة ..
وكانت انقضاضته إيذانا ببدء عمل فريق الرجال ، الذى يشكل جبهة الحكيم (همام) ، المعارضة للخائن (جهلان) ..
ولم يتصوَّر (فارس) أنهم بهذه الكثرة ..
لقد ظهر رجلان آخران ، أسرعا يغلقان باب البرج الشرقى ، خلف الفرسان الستة ، لسجنهم داخله ، فى حين برز أكثر من عشرة رجال ، هاجموا حرَّاس الأسوار ، ورجلان آخران ، انضمَا إلى (فارس) ، فى هجومه على الفرسان الأربعة الباقين ..
وكانت خطة (فارس) تعتمد على مباغتته العدو ، وعدم منح الفرسان فرصة كافية ، لجذب الذراع المعدنية ، وإغراق الشيخ داخل القبو ..
وكان القتال شرسًا وعنيفًا ، فالفرسان الأربعة كانوا مقاتلين صناديد ، وكانت ضرباتهم قوية عنيفة ، ولكن (فارس) تصدَى لها فى قوة وحزم ، وأطاح بسيف أحدهم ، ثم طعنه طعنة نجلاء ، واستدار إلى الثانى ، فى نفس الوقت الذى سقط فيه أحد الرجلين المعاونين له ، بطعنة قاتلة من أحد الفرسان ، وعاد (فارس) يبارز رجلين فى آن واحد ..

وبارزه الرجلان فى وحشية واستماتة ، ولكنه راح يضرب السيفين فى تتابع متقن مدهش ، حتى مزَّق فخذ أحد الرجلين بسيفه ، ثم أدار السيف فى الهواء بمهارة مدهشة ، وغرسه فى عنق الثانى ..
وفى غضب ، تراجعَ الفارس الأخير ، هاتفًا :
ـ لن تربح أيها الفارس الأبيض .. سيغرق الشيخ كالجرذ الأجرب .
واندفع نحو الذراع المعدنية ، فلحق به (فارس) ، هاتفًا :
ـ إياك أن ..
ولكن الرجل قفز نحو الذراع المعدنية ، وجذبها فى قوة ، وصوت (جهلان) يرتفع عبر النافذة :
ـ إنها خدعة .. خدعة .
وتفجَّرت المياه عبر فتحات القبو ، وصرخ (فارس) :
ـ أيها الوغد الحقير .
وطعن الرجل فى قلبه تمامًا ، ثم سحب سيفه ، وانطلق يعدو إلى داخل القبو ..
كانت المياه تتدفق فى غزارة ، وتغمر القبو فى سرعة ، والشيخ مقيد بأغلال معدنية إلى جوار القبو ، ولم يكد يرى (فارس) ، حتى هتف به :

- ارجع يا ولدى .. ارجع يا (فارس) .. سنغرق معًا يا ولدى .

هتف (فارس) :

- محال يا عماه .. محال أن أتركك هنا .

انقضَّ على الأغلال المعدنية ، يحاول تحطيمها ، والشيخ يهتف :

- لا فائدة يا (فارس) .. تراجع يا ولدى .. تراجع .

كانت الأغلال متينة بالفعل ، فتخلّى عنها (فارس) ، وراح يضرب الأجزاء التى تثبتها بالجدار ، حتى حطَّم أحدها ، ثم انتقل إلى الآخر ..

وغمرت المياه القبو ..

غمرته تمامًا ، حتى أن جسدى (فارس) والشيخ أصبحا تحت مستوى الماء ، و (فارس) يواصل محاولاته لانتزاع الأغلال المعدنية من الجدار ..

ثم نجح أخيرًا ..

وبأقصى سرعة ممكنة ، حمل الشيخ ، وراح يسبح به حتى بلغ درجات السلم ، التى تقود إلى ساحة القصر ، فواصل سباحته إلى أعلى ، وبرز رأسه ورأس الشيخ فوق

سطح الماء والتقط كل منهما نفسًا عميقًا ، ثم هتف (فارس) :

- لقد نجونا يا سيِّدى .. نجونا .

أتاه صوت صارم بارد ، يقول :

- ليس بعد يا فتى .

وأمام عينيه مباشرة ، رأى (فارس) كل رجال الحكيم (همام) ، وقد سقطوا فى قبضة جيش (جهلان) الصغير ، ما بين أسير وقتيل ، ووقف (خوان) و (كارلوس) أمام مدخل القبو ، وخلفهما الفرسان الستة ، والحاكم (جهلان) ..

وكان هذا يعنى أن (فارس) قد سقط ..

بل سقطت (الأندلس) كلها .

* * *



٨ ـ حكم الإعدام ..

ران على ساحة القصر صمت عميق رهيب ، والكل يتطلّعون إلى (فارس) والشيخ ، اللذين وقفا ثابتين ، على الرغم من المياه التى أغرقتهما عن آخرهما ، وانعقد حاجبا (جهلان) فى غضب ، وهو يدير عينيه فى المكان ، فى حين التقط (خوان) نفسًا عميقًا ، ملأ به صدره عن آخره ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة شامتة ساخرة ، قبل أن يقطع حبل الصمت ، وهو يشدّ قامته ، قائلًا :

ـ أهنئك يا فتى .. لقد فاجأتنا بحق .

وازدادت ابتسامته سخرية ، وهو يتابع :

ـ صحيح أننا كنا نتوقّع قدومك ، ونستعد لملاقاتك ، ولكننا لم نكن نتوقّع أن تأتى إلينا برجال الحكيم (همام) ، فنقطف الجميع بضربة واحدة ، ونحصدهم بمنجل واحد .

قال (فارس) فى هدوء :

ـ هؤلاء ليسوا الجميع .

قال (خوان) فى حزم :

ـ إنهم بداية الخيط ، الذى سيحترق عن آخره ، فى أيام معدودات ، بسبب حماقاتك وغرورك .

أجابه (فارس) فى صرامة :

ـ بل بسبب خائن مثل (جهلان) ، الذى أدار ظهره لعروبته ، وسمح لوغدين قشتاليين بإدارة شئونه ، طمعًا فى ربح زائل وغير مضمون .

ابتسم (خوان) فى سخرية ، وقال :

ـ أتظنه غير مضمون حقًا ؟!

أجابه (فارس) :

ـ بل أوقن من أنه كذلك .

ورسم على شفتيه ابتسامة ساخرة مماثلة ، وهو يستطرد :

ـ فأميرنا (ابن الأحمر) يعرف كل التفاصيل .. يعرف أنكم تعدّون العدة لهجوم واسع على حدودنا ، ولمحاولة جديدة لانتزاع مملكة (غرناطة) ، آخر ما تبقّى لنا من (الأندلس) .. بل ويعلم أنكم ستهاجمون بخمس فرق دفعة واحدة ، من هذه النقطة .. من (شنتفى) ، وبمعاونة الخائن (جهلان) .

أطلق (خوان) ضحكة عالية مجلجلة ، وهو يقول :

ـ عظيم .. عظيم ما تعرفون .. إننا ننوى الهجوم بخمس فرق فحسب .

ثم مال نحو (فارس) ، مستطردًا :

ـ ولكن المفاجأة هى أننا لن نهاجم من هنا يا فتى .. لقد خدعناكم جميعًا ، لنضرب ضربتنا من مكان آخر لا تتوقعونه ..

وابتسم فى تشف ، مردفًا :

ـ من (بسطة) .
وكانت مفاجأة حقيقية ..
مفاجأة مذهلة ..

★ ★ ★

قهقه الملك (فرناردو) ضاحكًا فى جذل ، ورفع كأسه عاليًا ، فى وجه الملكة (إيزابيلا) ، وهو يهتف :
ـ نخب خطتى العبقرية ، التى ستستعيد (الأندلس) كلها ، لتصبح مملكة (قشتالة) العظمى .
قالت (إيزابيلا) فى حزم :
ـ (قشتالة) و (ليون) .
قهقه الملك (فرناندو) ضاحكا فى جذل ، ورفع كأسه
ـ فليكن يا عزيزتى (إيزابيلا) .. (قشتالـة) و (ليون) .
ابتسمت فى ارتياح ، وتراجعت فى عرشها ، وهى تقول :
ـ ولكننى أعترف لك بالعبقرية ، فخطتك مدهشة ، وقادرة على خداع الشيطان نفسه .
ابتسم (فرناندو) فى زهوٍ ، وهو يقول :
ـ أشكرك يا عزيزتى (إيزابيلا) .. إنها خطة عبقرية بحق ؛ ففرار (غالا) سيبدو منطقيًا للغاية ، وعندما نُرسل

خلفها بعض الرجال ، ممن نعتبرهم فى بند خسائر المعركة ، فيقاتلون لاستعادتها ، وهى تسعى إلى معسكر الوزير ، سيبدو الأمر منطقيًا ومقنعًا للغاية .. وهكذا يصدقون كل ما ترويه لهم .. ومن الطبيعى أن يصدقوا قصتها عن الهجوم ، الذى سيبدأ من (شنتفى) ؛ نظرًا لما سيتضمَّنه الأمر من تفاصيل منطقية ، تستند إلى دلائل معقولة واضحة ، وعندما يجمعون جيشهم لمواجهة جيشنا فى (شنتفى) ، نباغتهم نحن بهجوم على (بسطة) ، فننتزعها منهم ، وتكون نقطة وثب مثالية إلى الهدف .
وبرقت عيناه ، وهو يستطرد :
ـ إلى (غرناطة) .
هزّت (إيزابيلا) رأسها ، وهى تقول :
ـ أنت داهية بحق .
ابتسم فى فخر ، ولكنها تابعت فى اهتمام :
ـ وهل تعرف (غالا) دورها جيدًا ؟
جرع ما تبقَّى من كأسه ، ثم مسح شفتيه بكمه ، وهو يقول :
ـ لقد درست الأمر وحفظته جيدًا ، وأنا واثق من قدرتها على أداء دورها .
قالت فى حيرة :

- وكيف أقنعتها بفعل هذا ؟

هزّ كتفيه ، قائلًا :

- لم يكن أمامها خيار آخر .. لقد أخبرتها أننى سأعدمها جزاء خيانتها ، ما لم تنفذ ما آمرها به ، وبمنتهى الدقة ، وأننى سأمنحها مكافأة مجزية ، فى حال نجاحها .

سألته بنظرة ذات مغزى :

- وهل ستفعل ؟

صمت لحظات ، وهو يتطلّع إلى كأسه الفارغة ، ثم هزّ رأسه ، قائلًا :

- من الخطأ العفو عن خائن ، فهذا يشجعه على الخيانة مرة ثانية .

بدا الارتياح على وجهها ، وهى تقول :

- هل تعنى أن ...

قاطعها فى حزم :

- نعم يا عزيزتى (إيزابيلا) .. الجزاء الوحيد الذى ينتظر (غالا) هو الموت .. لقد أصدرت حكمًا بإعدامها ، وهذا يعنى أن (غالا) قد انتهت يا عزيزتى .. انتهت تمامًا ..

★ ★ ★

لم تكد الشمس تشرق على حصن الحمراء فى (غرناطة) ، حتى بدأ الباعة يتخذون أماكنهم فى السوق المحيط به ، ومن بينهم تسلّل بائع طيور لمقابلة (غالا) ، التى سألته بلغتها القشتالية :

- هل أحضرتها ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

- بالطبع .. هل أعددت الرسالة ؟

ناولته رقعة صغيرة مطوية ، وهى تهمس :

- ها هى ذى .

ابتسم قائلًا :

- عظيم .. هل تحوى كل المعلومات ؟

غمغمت :

- كلها .

ربط الرقعة فى قدم حمامة من حمام النوع الزاجل فى عناية ، وقال :

- عودى إذن إلى القصر ، واجمعى المزيد من المعلومات ، وسأرسل أنا هذه الرسالة إلى (قرطبة) على الفور .

انفصلا فى سرعة ، وعادت هى إلى القصر ، فى حين شقّ هو طريقه وسط السوق ، حتى بلغ ربوة عالية على مشارفه ، فابتسم وهو يقول للحمامة :

- هيا يا صغيرتى .. انطلقى إلى (قرطبة) ، وأوصلى كل أسرار العرب إلى مليكنا (فرناندو) .

ولكن فجأة ، شعر بيد ثقيلة توضع على كتفه ، مع صوت صارم يقول :

- سلها أولًا ، فربما تفضل البقاء هنا .

التفت فى هلع إلى صاحب الصوت ، ورأى أمامه ثلاثة من رجال الأمير، يرمقونه بنظرات صارمة، وأحدهم يكمل:

- إذ أن أسرارنا لن تذهب إليكم بهذه السهولة .

جفل الجاسوس ، وأطلق الحمامة ، وهو يهتف :

- بل ستذهب إلينا الآن .

انطلقت الحمامة ترفرف بجناحيها مبتعدة ، فى طريقها إلى (قرطبة) ، وهى تحمل الأسرار العربية فى قدمها ، ولكن أحد الرجال الثلاثة سحب قوسه ، ودسّه فى وتر قوسه ، وأطلقه ..

وسقطت الحمامة ..

وصرخ الجاسوس :

- لا .. لا ..

ثم استل خنجره ، وهم بالهجوم على الرجال الثلاثة ، الذين استقبلوا انقضاضته بحزم واضح ، وقيدوه فى إحكام ، ثم قال أحدهم :



ولكن فجأة ، شعر بيد ثقيلة توضع على كتفه ، مع صوت صارم يقول :
- سلها أولًا ..

ـ اطمئن أيها الحقير .. لن نقتلك .. إننا نراقب شريكتك منذ ساعات ، ونحتاج إلى معرفة كل ما لديك .. هيَّا بنا .

فى نفس اللحظة ، كانت (غالا) تصعد إلى الجناح الذى خصَّصه لها الأمير ، فى أحد أبراج الحصن ، ولكنها فوجئت بالوصيفة (نذيرة) أمامها ، ترمقها بنظرة غاضبة ، وهى تقول :

ـ ما الذى أعطيته لبائع الطيور ؟

انعقد حاجبا (غالا) فى شدة ، وهى تقول :

ـ لا شأن لك بهذا .

وواصلت طريقها فى صرامة ، ولكن (نذيرة) استوقفتها ، قائلة :

ـ إنها أسرارنا .

التفتت إليها (غالا) بنظرة حادة ، فاستطردت (نذيرة) فى حدة :

ـ نعم .. هى أسرارنا .. لقد سمح لك مولاى بالتجوال هنا ، فدرست كل ما ترينه ، وسجلته على رقعة من الجلد ، ثم سلمته لذلك الجاسوس .. أنا أعرف هذا .

زمجرت (غالا) ، قائلة :

ـ اصمتى أيتها المأفونة .

هتفت (نذيرة) :

ـ بل أنت جاسوسة .. جاسوسة قذرة .

وفجأة ، استلت (غالا) من طيات ثيابها خنجرًا ، وهى تقول :

ـ أيتها العربية الحقيرة .

وانقضت عليها فى وحشية ، فأمسكت (نذيرة) معصمها ، لتمنعها من طعنها ، وهى تهتف :

ـ إذن فقد كنت على حق .. أنت جاسوسة .

هتفت (غالا) ، وقد استحالت إلى وحش كاسر .

ـ بالطبع أيتها الغبية .. هل تصوَّرت أننى سأخون (قشتالة) من أجلكم ؟!.. من أجل بعض العرب .. لا أيتها المرأة .. لو أنك تصوَّرت هذا فأنت واهمة .. لقد قتل فارسكم الأبيض الرجل الوحيد الذى أحببته ، فى عمرى كله .. قتل (رودريك) (*) .. ويومها أقسمت أن أثأر لحبيبى ، وأن أقتل (فارس) .. ولكن الفكرة لم تلبث أن تطوَّرت فى أعماقى ، وقرَّرت الانتقام من العرب كلهم .. ستدفعون جميعًا ثمن حياة (رودريك) .. ستدفعون جميعًا الثمن ..

ولكن (نذيرة) قاومتها بكل قوتها ؛ وهى تصرخ :

ـ النجدة .. النجدة يا رجال .

(*) راجع قصة (جاسوس قرطبة) .. المغامرة رقم (١) .

إلا أن (غالا) انتزعت معصمها من يد (نذيرة) ، وغرست الخنجر فى قلبها ، وهى تهتف فى وحشية جنونية :

ـ خذيها أيتها العربية .. خذيها من قشتالية .

جحظت عينا (نذيرة) فى شدة ، وشهقت شهقة أخيرة ، ثم هوى رأسها على صدرها ، وسقطت جثة هامدة ..

وفى نشوة ، نهضت (غالا) ، وبرقت عيناها فى وحشية ، وهى تقول :

ـ فلتكونى أوّل الغيث أيتها العربية ، وبعدك بـ ..

وقبل أن تتمّ عبارتها ، ظهرت الأميرة (جميلة) بغتة أمامها ، فأسرعت تخفى خنجرها ، وهى تهتف فى ارتياع زائف :

ـ قتلوها .. قتلوا (نذيرة) يا مولاتى .. جاسوسة قتلتها وهربت ، قبل أن أتبيّن ملامحها .

انعقد حاجبا الأميرة (جميلة) فى غضب هادر ، وهى تقول :

ـ هل تعلمين ما الذى تعنيه (نذيرة) ، بالنسبة لى ؟

تطلّعت إليها (غالا) لحظة فى حيرة ، ثم غمغمت :

ـ مولاتى ..

ولكن (جميلة) تابعت فى حزم ، وقد تجمّعت دمعة غاضبة كبيرة فى عينيها :

ـ لقد توفيت أمى مع مولدى ، وربتنى (نذيرة) ، وكانت بالنسبة لى أمًا رحيمة حنون ، غمرتنى بعطفها ورعايتها منذ مولدى ، وعبر طفولتى وصباى وشبابى .

ثم التقى حاجباها فى غضب ، وهى تستطرد :

ـ وأنت قتلتها الآن .

قالت (غالا) فى توتر :

ـ قلت لك : إن جاسوسة ..

قاطعتها الأميرة فى غضب :

ـ أنت قتلتها يا (غالا) .. قتلتها أيتها القشتالية الحقيرة .. هل تعلمين ما الذى يعنيه هذا ؟

تطلّعت إليها (غالا) لحظة ، ثم قالت فى صرامة :

ـ يعنى أن التوقّف صار مستحيلًا الآن .

واستلّت خنجرها مرة أخرى ، وهى تنقض به على الأميرة ، صارخة :

ـ وأن الأمر سيتكرّر معك .

صرخت الأميرة فى صرامة :

ـ لا يا (غالا) .

وفجأة ، أبرزت يدها من خلفها ، وهى تمسك سيفًا قويًا ، هوت به على عنق (غالا) الجميل ، وهى تستطرد :

- بل يعنى أننا سنطبق قاعدة العدل الأولى .
واعتدلت فى حزم ، وهى تتطلع إلى جثة (غالا) ، ثم رفعت رأسها فى اعتداد ، مضيفة :
- العين بالعين .. والسن بالسن .. والبادى أظلم .
وانهمرت دموعها على وجنتيها ..

★ ★ ★

اتسعت عينا (فارس) والشيخ فى دهشة بالغة ، وتبادلا نظرة أقرب إلى الذهول ، وهتف (فارس) :
- فى (بسطة) ؟!
أما الشيخ ، فقال فى حذر :
- أهى خدعة أخرى ؟
أطلق (خوان) ضحكة عالية قوية ، وقد راق له ذلك الذهول، الذى ارتسم فى ملامحهما ، وقال متباهيًا متشفيًا :
- لم تكن هناك سوى خدعة واحدة ، سقط الجميع فيها ، كما يسقط الذباب فى وعاء من العسل .. خدعة وضعها مليكنا (فرناندو) بخبرته وحنكته ، مستغلًا شهامتكم العربية ، وسرعة تصديقكم وتأثركم بدموع النساء ، وأرسل إليكم (غالا) ، مع قصة متقنة ، تدفعكم لجلب جيوشكم إلى هنا ، فنضربكم نحن فى بقعة أخرى .
عقد (فارس) حاجبيه ، وهو يقول :
- يا للحقيرة !

غمغم الشيخ :
- كنت أتوقع هذا .. لا يجب أن يثق المرء فى أعدائه ، مهما أبدوا من التعاطف والصدق معه .
قال (فارس) فى حزم :
- صدقت يا عماه .. لن أنسى هذا ما حييت .
قهقه (خوان) ضاحكًا ، وقال :
- لن تنسى هذا ؟!.. يا لها من عبارة متفائلة طريفة .. هل تتصور أنك ستحيا ، لتضع درسًا جديدًا فى ذاكرتك ؟
تطلع (فارس) إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول :
- سأحيا بإذن الله ، حتى أبصق بنفسى فى وجه مليككم المحبوب .
انعقد حاجبا (خوان) ، وهو يقول :
- أخطأت يا فتى .
ثم مال نحوه ، مستطردًا :
- صحيح أن الملك (فرناندو) طلب الإبقاء على حياة الوزير ، حتى يلتقى به بنفسه ، إلا أن هذا الأمر لم ينطبق عليك ..
وبرقت عيناه ، وهو يضيف فى شماتة :
- لقد أصدر أوامره بإعدامك .
قال (فارس) فى سخرية :
- حقًا ؟!

قال (خوان) فى حدة :

ـ ألا يعنيك أمر موتك ؟

هزَّ (فارس) كتفيه ، وقال :

ـ الأعمار بيد الله (سبحانه وتعالى) ، ولكن ينبغى أن تعلم أوَّلا أنك مخطئ .

قال (خوان) فى عصبية :

ـ بشأن إعدامك ؟!

هزَّ (فارس) رأسه فى هدوء ، وقال :

ـ بل بشأن رجالِ الحكيم (همام) .. إنهم أكثر مما تتوقَّع بكثير .

بدا التوتر على وجه (جهلان) ، واندفع قائلًا :

ـ ما الذى تعنيه يا فتى ؟

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى انطلقت هتافات رهيبة خارج القصر ، وراح العشرات يضربون أبوابه بأسلحتهم ، فابتسم (فارس) ، وقال :

ـ هذا ما أعنيه .

شحب وجه (جهلان) فى شدة ، وهو يقول فى شحوب :

ـ إنهم ثائرون .

واحتقن وجه (خوان) ، وهو يهتف بـ (فارس) :

ـ ما هذا الذى يحدث ؟.. ما الذى يعنيه ؟

أجابه فى صلابة :

ـ يعنى أن أحدًا لم يعد يحتمل خيانة (جهلان) ، ولا تواجد قشتاليين داخل القصر ..

لقد بدأت الثورة يا رجل .

صرخ (جهلان) فى رعب :

ـ لا .. لا .

ثم انطلق يعدو إلى برجه ، فى حين بدا الغضب على وجه (خوان) ، وهو يقول :

ـ أنت .. أنت دفعتهم إلى الثورة .

هزَّ (فارس) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ بل هى كامنة فى أعماقهم يا رجل ، وتنتظر اللحظة المناسبة لتنفجر ، وتعلن عن نفسها .. ووجودك منحهم القوة الكافية .. كل ما فعلته أنا هو أن أشعلت الفتيل فحسب .

ازداد احتقان وجه (خوان) ، وتراجع يحدّق فى (فارس) والشيخ بمقت وكراهية ، فقال الشيخ فى هدوء :

ـ من الحماقة أن تواصل القتال ، عندما تصبح الهزيمة حتمية .

صاح به (خوان) :

ـ اخرس أيها الوزير .

ولكن الشيخ تابع :

ـ والحكيم هو من يعلم متى يحنى جبهته للعاصفة .

صرخ (خوان) :

ـ قلت لك : اصمت أيها الوزير .. اصمت .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستطرد :

ـ ولكن حتى هذه الثورة ، لن تمنعنى من تنفيذ الحكم ، الذى أصدره مولاى .

والتفت إلى زميله ، هاتفًا :

ـ (كارلوس) .. استل سيفك .

استلّ (كارلوس) سيفه على الفور ، فتابع (خوان) فى غضب صارم ، وهو يشير إلى (فارس) :

ـ نفذ حكم الإعدام فى الفارس الأبيض .

وفى حزم ، اتجه (كارلوس) نحو (فارس) ، ورفع السيف ، وهوى به فى قوة ، و ..

وعلى صدر (فارس) .

★ ★ ★

٩ ـ الثــورة ..

فجأة ، هبَّ (مهاب) من رقاده ، وهتف :

ـ أين (فارس) ؟

ربَّت الحكيم (همام) على صدره فى رفق ، وهو يقول :

ـ اهدأ يا رجل .. اهدأ .. (فارس) ليس هنا .

تطلَّع إليه (مهاب) فى شك ، وهو يقول :

ـ من أنت ؟.. وأين ذهب (فارس) ؟

ابتسم الحكيم ، وقال :

ـ عجبًا !.. ألا تذكرنى يا قائد الفرسان ؟

هتف (مهاب) ، وهو يحدِّق فى وجهه :

ـ قائد الفرسان ؟!.. قليلون هم من يعرفون هذا اللقب ، ومن ..

ثم بتر عبارته بغتة ، وتهلَّلت أساريره ، وهو يهتف فى حرارة :

ـ الحكيم (همام) .. يا لسعادتى برؤيتك .. إننى لم أعرفك للوهلة الأولى .. لقد طعنت فى السن ، وأصبحت لحيتك بيضاء كثة ، و ...

بتر عبارته مرة أخرى ، وقال فى توتر :

ـ ولكن ماذا تفعل هنا ؟.. وأين (فارس) ؟

تنهّد (همام) ، وقال :

ـ أنا أقيم فى (شنتقى) منذ عدة أعوام يا رجل ، ولقد لجأ إلىّ (فارس) ، فى محاولة لإنقاذك ، بعد أن تلوّث جرحك ، وأصابتك الحمى ، وهو الآن فى قصر (جهلان) ، يحاول إنقاذ الوزير .

هتف (مهاب) فى ذعر :

ـ وحده ؟!

هزّ الحكيم رأسه ، قائلا :

ـ كلا .. ليس وحده .. لقد قرّرنا مؤازرته بثورة كاملة .

عقد (مهاب) حاجبيه ، وهو يتمتم :

ـ قرّرتم ؟!

أومأ الحكيم برأسه ، وقال :

ـ نعم يا قائد الفرسان .. إننا نعلم أن (جهلان) خائن ، يتعامل مع القشتاليين ، ويسعى لمعاونتهم على انتزاع (الأندلس) الصغرى ، ولقد أعددنا أنفسنا ، واستعددنا للثورة عليه ، وعزله من منصبه ، وكنا ننتظر اللحظة المناسبة .

وتنهّد مرة ثانية ، ولوّح بذراعيه ، وهو يبتسم قائلا :

ـ وجاء (فارس) ، وقرّرنا أن تبدأ الثورة اليوم .

غمغم (مهاب) فى توتر :

ـ ولكنه وحده .

اعتدل (همام) ، وقال :

ـ (فهد) معه .

هتف (مهاب) :

ـ (فهد) .. أأنت واثق من هذا ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. إننى لم أفهم فى البداية ما يعنيه (فارس) ، بطلب وجود (فهد) فى القصر .. ثم أتى (فهد) إلى هنا .. جاء مصابًا والدماء تغرق جسده كله تقريبًا .. وعندئذ فهمت .. ولقد داويت (فهد) ، وطلبت منه البقاء للراحة ، وذهبت لأحضر له بعض الدواء ، ولكننى عدت فلم أجده .

ابتسم (مهاب) فى ارتياح ، وأسبل عينيه ، وهو يغمغم :

ـ لقد ذهب إليه .

هزّ الحكيم رأسه ، وهو يقول :

ـ عجيب هو (فهد) هذا .. إنه مخلص ووفى ، إلى حد يجعلك تتمنى لو أن ...

بتر عبارته بغتة ، عندما لاحظ استرخاء جسد (مهاب) ، وقال فى قلق :

هل تسمعنى يا قائد الفرسان ؟

ولكن (مهاب) لم يكن يسمعه ..

لقد اطمئن على أمر (فارس) ، ثم عاد إلى غيبوبته .. غيبوبته العميقة ..

★ ★ ★

رفع (كارلوس) سيفه فى ثقة ، وهوى به على صدر (فارس) ، إلا أن هذا الأخير تحرّك فى مرونة ، وهو يستلّ سيفه ، ويصدّ به سيف (كارلوس) ، قائلًا :

ـ عندما تنشد قتل رجل ، تأكد من أنك قد جرّدته من سلاحه أوّلًا .

ثم انقضّ على (كارلوس) ، وضرب سيفه فى قوة ، وأزاحه بعيدًا ، قبل أن يضرب بطن هذا الأخير بسيفه .

وجحظت عينا (كارلوس) ، وهو يمسك معدته ، فى نفس اللحظة التى اقتحم فيها الثائرون أبواب القصر ، واندفعوا إلى ساحته ، بعد أن عاونهم بعض الموالين لهم من الداخل ، على فتح الأبواب ، فتراجع (خوان) ، هاتفًا :

ـ اللعنـة .

ثم صاح فى الفرسان الستة :

ـ اقتلوا الفارس الأبيض .

وترك الفرسان ينقضون على (فارس) ، وهو يعدو

متجها إلى البرج الغربى ، واستقبل (فارس) الفرسان الستة بسيفه ، وبدا له أنه من المستحيل أن يقاتل ستة من الفرسان الأشداء فى آن واحد ، ولكنه ضرب بسيفه يمينًا ويسارًا ، قبل أن يندفع إليه عشرة من خيرة فرسان (همام) ، وهم يهتفون :

ـ اتركهم لنا أيها الفارس .

واشتبك الفرسان العشرة مع فرسان (جهلان) الستة ، فى نفس الوقت الذى اقتحمت فيه كوكبة من الثائرين البرج الشرقى ، الذى يقيم فيه (جهلان) ، وراح هذا الأخير يصرخ من شرفته ، التى التهمت النيران نصفها :

ـ لا .. لا تسمحوا لهم بالدخول أيها الحرّاس .. اقتلوهم .. اقتلوهم عن آخرهم .. لا تسمحوا لهم بالوصول إلىّ .

ولكن الثائرين أزاحوا الحرّاس عن طريقهم ، واندفعوا إلى البرج ، و (جهلان) يصرخ فى جنون :

ـ لا .. لا تسمحوا لهم .. إنهم سيقتلوننى .. لا .

وأحاط به الثائرون ، فجحظت عيناه ، وتراجع صارخًا :

ـ لا .. ابتعدوا عنى .. ابتعدوا .

ومع تراجعه ، ارتطم بحاجز الشرفة نصف المحترق ،



استقبل (فارس) سيف (خوان) على سيفه ، وأبعده بضربة قوية ..

فتحطم الحاجز ، وهوى (جهلان) معه ، وهو يطلق صرخة رهيبة ، انتهت مع ارتطامه بالأرض ، وتحطم جسده تماما .. وفى هذه الأثناء كان (خوان) يعدو صاعدا إلى أعلى البرج ، و (فارس) يطارده ، وهو يقول فى صرامة :

- استسلم أيها القشتالى .. لا فائدة من الفرار إلى برج عال .

صرخ (خوان) :

- محال أيها العربى .. محال .. إننى أفضل الموت .

ولكن لكل شىء نهاية ..

ولقد بلغ (خوان) نهاية البرج ..

وهناك ، استل سيفه ، ووقف يلهث ، فى انتظار صعود (فارس) ..

وعندما بلغ (فارس) نهاية البرج ، انقض عليه (خوان) ، صائحا :

- الآن حانت نهايتك أيها العربى .

استقبل (فارس) سيف (خوان) على سيفه ، وأبعده بضربة قوية ، ثم وثب إلى تلك الحجرة الضيقة ، فى قمة البرج ، واستدار يواجه (خوان) ، الذى بارزه فى براعة ، وهو يقول فى حدة :

- لن تنجح أيها العربى .. إننى أستخدم السيف من زمن يناهز عمرك .

تفادى (فارس) ضربته ، وهوى عليه بسيفه ، قائلًا :

- المهم هو كيف تستخدمه أيها القشتالى .

كان الاثنان يقاتلان ببراعة ومهارة ، حتى أن المبارزة بدت متكافئة للغاية ، وهتف (خوان) فى عصبية :

- من الواضح أنك تلقيت تدريبات جيدة أيها العربى .

أجابه (فارس) ، وهو يثب نحوه ، ويدفع سيفه إلى صدره :

- بل هى ممتازة أيها القشتالى .

تلقَّى القشتالى السيف بسيفه ، ودفعه بعيدًا ، وهو يقول :

- ليس إلى هذا الحد .

وفى نفس اللحظة ، تعالى هتاف الثائرين ، يعلن نجاح ثورتهم ، فتوقَّف (خوان) لاهثًا ، وهو يقول فى حدة :

- من الواضح أن خطتك قد نجحت ، وبأكثر مما تتصوَّر أيها العربى .

خفض (فارس) سيفه ، وهو يقول :

- بل هو ما تصوَّرته بالضبط أيها القشتالى .. أنت لا تعرف الروح العربية .. قد يصمت الشعب ويحتمل طويلًا ، ولكنه عند ما يثور ، لا تنجح قوة فى الأرض فى منع هذه الثورة ، حتى يستعيد حقه .

مطَّ (خوان) شفتيه ، وقال :

- هـراء .

ثم انقضَّ على (فارس) بغتة ، مستطردًا :

- إنما هو ضعف (جهلان) .

صدَّ (فارس) سيفه ، ثم دفعه بعيدًا ، قائلًا :

- الطغاة دائمًا ضعفاء ، مهما تصوَّروا العكس .

تراجع (خوان) بحركة مباغتة ، ثم اختطف مقعدًا خشبيًا صغيرًا ، يستخدمه فى المعتاد رجال حراسة البرج ، وألقاه نحو (فارس) ، هاتفًا :

- فكرة غبية كصاحبها .

تفادى (فارس) المقعد بانحناءة جانبية ، فانقضَّ عليه (خوان) ، صارخًا :

- خذها منى أيها العربى .

تراجع (فارس) فى سرعة ، ليتفادى الضربة الموجَّهة إلى صدره ، ولكنه ارتطم بحاجز النافذة فى عنف ، وشعر بجسده يتراجع إلى الفراغ ، ثم هوى ..

هوى من البرج الغربى ..

* * *

تطلع الأمير (محمد بن الأحمر) إلى جثة (نذيرة) فى أسى ، ثم هزَّ رأسه فى أسف ، وهو يقول :

ـ يا للمسكينة !.. لم يتوقَّع مخلوق واحد أن تأتى نهايتها على هذا النحو .. لقد كنت أعتبرها أمًا لابنتى (جميلة) .

ثم نقل بصره إلى جثة (غالا) ، وقال :

ـ ولكن القاتلة نالت جزاءها .

ورفع عينيه إلى ابنته ، متابعًا :

ـ بيد ابنتى .

أجهشت (جميلة) بالبكاء ، وهى تخفى وجهها بين كفيها ، فنهض الأمير ، واحتوى ابنته بين ذراعيه ، وربَّت عليها فى حنان ، قائلًا :

ـ لا تبكى يا بنيتى .. إنه قدرها .

قالت فى مرارة :

ـ لست أبكى (نذيرة) وحدها ، وإنما أبكى ما فعلته يا أبتاه .

ثم انهارت مستطردة :

ـ لقد قتلتها .. القتل أمر بغيض يا أبى .. بغيض للغاية .

تنهَّد وهو يضمها إليه فى حنان ، مغمغمًا :

ـ أعلم هذا يا بنيتى .. أعلم هذا .

وحاول أن يبتسم ، وهو يستطرد :

ـ ولكنك فعلت ما ينبغى فعله يا بنيتى ، فمن قتل يُقتل ، ولو بعد حين .

قالت باكية :

ـ ليس بيدى يا أبى .

قال فى خفوت :

ـ الله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم يا بنيتى .

ثم أشار إلى وصيفاتها ، فعاونَّها فى العودة إلى جناحها ، وهو يقول لهنَّ فى حنان مشفق :

ـ خففن عنها .

وراقبها ببصره حتى غادرت قاعة الحكم ، ثم التفت إلى وزيره ، وقال :

ـ ما الموقف الآن ؟

أجابه الوزير :

ـ لقد ثبت أنها خائنة ؛ لذا فلا ينبغى أن نصدِّق حرفًا واحدًا مما قالته .

أجابه الأمير :

ـ ليس الأمر بهذه البساطة أيها الوزير ، فما ذكرته يتفق إلى حدٍّ كبير مع الكثير من المعلومات ، التى جمعها

جواسيسنا من (قرطبة) .. فصحيح أن القشتاليين يجمعون فرقهم الآن ، ويعدّون لهجوم عنيف مركّز ، ولكننا نجهل أين ستكون ضربتهم ..

قال الوزير :

ـ هذا لا يعني أنها ستكون فى (شنتفى) يا مولاى .

هزّ الأمير رأسه ، وقال :

ـ أعلم هذا ، ولكن إعداد الجيوش وتحريكها يحتاج إلى الكثير من الوقت أيها الوزير ، والضربة التى يعدّها القشتاليون قوية ، وتحتاج إلى حشد الكثير من قوتنا فى ضربة اعتراضية تفوقها قوة ، وهذا لن يأتى أبدًا ، لو أننا شتتنا قوتنا بطول الحدود .

وانعقد حاجباه ، وهو يستطرد فى حزم :

ـ لا بد أن نعرف أين ستأتى الضربة أيها الوزير .. أين ؟

وضرب سطح المنضدة المجاورة له بقبضته ، مكررًا فى توتر شديد :

ـ أين أيها الوزير ؟

ولم يحر الوزير جوابًا ..

★ ★ ★

تألّقت عينا (خوان) فى فرحة غامرة ظافرة ، عندما شاهد (فارس) ، يسقط من نافذة البرج ، وصرخ فى سعادة جنونية :

ـ انتصرت .. هزمتك يا فارس العرب .

واندفع إلى النافذة ، يتطلّع منها إلى أسفل ، وهو يتوقّع رؤية جسد (فارس) . وقد تهشم فوق الصخور ، ولكنه لم يكد ينظر ، حتى تفجّرت صرخة فى جسده كله :

ـ لا .

والتقى حاجباه فى عنف ، عندما وقع بصره على (فارس) ، الذى تعلّق بذلك الحبل ، الذى استخدمه للصعود إلى البرج مع الشروق ، وصرخ :

ـ لا .. لا يمكنك أن تفعل هذا .

كان (فارس) قد نجا بمعجزة حقيقية ، عندما رأى الحبل أمامه ، وهو يسقط من النافذة ، وتذكّر أنه لم يرفعه بعد صعوده .

واستجمع (فارس) قوته كلها ، ودفع جسده نحو الحبل ، وتشبّث به .

وعلى مسافة ثلاثة أمتار من النافذة ، تعلّق جسد (فارس) ..

ثم ظهر وجه (خوان) ، وأطلق صرخته ، وحدّق فى وجه (فارس) بكل الكراهية والمقت فى أعماقه ، قبل أن يرفع سيفه ، قائلًا :

ـ فليكن أيها العربى .. لن يلازمك الحظ إلى الأبد .

وانعقد حاجبا (فارس) فى شدة ، عندما رأى (خوان) ينحنى إلى الأمام ، ويمسك تلك الحلقة المعدنية ،

المثبت فيها طرف الحبل ، ثم يبدأ فى قطعه بسيفه ، قائلا فى تشف واضح :

ـ هيًا .. أرنى كيف تنجو الآن .

ولم يتردّد (فارس) لحظة واحدة ..

لقد أدار سيفه الفضى فى يده ، وقذف به (خوان) بكل قوته ..

وانغرس السيف فى قلب (خوان) مباشرة ، فاتسعت عينا القشتالى فى ألم وارتياع ، وهمهم بكلمة غير مفهومة ، ثم سقط داخل البرج جثة هامدة ..

ولكن عينا (فارس) اتسعتا فى قلق أكثر ..

لقد رأى الحبل ، وقد قطع سيف (خوان) نصفه تقريبًا ، وبدأ النصف الثانى يتمزّق مع ثقله ..

وراح (فارس) يتسلّق الحبل فى سرعة ، وهو يأمل أن يبلغ حافّة النافذة ، قبل أن ينقطع ..

ولكن ، ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ..

لقد كان (فارس) على مسافة نصف المتر من حافّة النافذة ، ويمد يده إليها ، عندما انقطع الحبل بغتة ..

وعاد جسده يهوى .

★ ★ ★

١٠ ـ الختام ..

فجأة ، امتدت يد قوية عبر النافذة ، وقبضت على معصم (فارس) ، لتمنعه من السقوط ..

ورفع (فارس) عينيه إلى أعلى ، ثم هتف فى سعادة حقيقية :

ـ (فهد) .

بدا ارتياح واضح فى عينى الزنجى العملاق ، وهو يجذب (فارس) إلى داخل البرج ، ثم ينتزع السيف الفضى من قلب (خوان) ، ويعيده إليه ، فهتف (فارس) فى انفعال :

ـ (فهد) .. وأخى الحبيب .. كنت أعلم أنك ستظهر فى الوقت المناسب .. كنت واثقًا من هذا .

ابتسم (فهد) فى سعادة ، دون أن تنفرج شفتاه عن حرف واحد ، ولاحظ (فارس) الضمادات التى تملأ جسده ، فقال فى توتر :

ـ ربّاه !!.. ماذا أصابك يا صديقى ؟

أمسك (فهد) كتفيه ، وهو يبتسم فى وجهه ، وكأنه يطمئنه على ما أصابه ، ثم انحنى أمامه فى احترام ، فجذبه (فارس) ، قائلًا :

ـ لا يا (فهد) .. لا يا أخى .. لا تركع أمامى قط .

تعالى هتاف الثائرين الظافر مرة أخرى ، فقال (فارس) فى سعادة :

ـ هل تسمع يا (فهد) ؟.. هل تسمع هتافهم ؟.. لقد نجحنا يا (فهد) .. نجحنا .. هيًا بنا نشارك الثوار فرحتهم .

وأسرع يهبط فى درجات السلم عدوًا ، ووجد الثوّار يحيطون بالشيخ ، فأسرع إليه ، هاتفًا :

ـ انتصرنا يا سيِّدى .. هزمنا القشتاليين مرة أخرى يا عمَّاه .

أجابه الشيخ فى رصانة :

ـ ليس بعد يا ولدى .. لقد كشف لنا أحمقهم خطتهم الحقيقية ، وعلينا أن نبلغ مولاى (ابن الأحمر) بها ، حتى يتخذ ما يلزم لصد هجوم القشتاليين .

ارتفع صوت يقول :

ـ اترك لنا هذه المهمة أيها الوزير .

استدار الشيخ إلى مصدر الصوت ، وابتسم وهو يقول ، فى لهجة تحمل رائحة السعادة الحقّة :

ـ الحكيم (همام) .. يا لسعادتى لرؤيتك .

تصافحا فى حرارة ، وقال الحكيم بابتسامة واسعة :

ـ لدى هنا وسائل عديدة ، لإبلاغ مولانا الأمير بكل شىء يا سيِّدى الوزير .

ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ ولكننا سنحتفل الليلة بانتصارنا ، وبمصرع الخائن (جهلان) .

غمغم الشيخ :

ـ أخشى أن ..

قاطعه (همام) بابتسامة كبيرة :

ـ لا .. لن أقبل أية اعتذارات .. إنها أوَّل مرة نجتمع فيها ، أنت وأنا ، وقائد الفرسان (مهاب) ، منذ ذلك اليوم الموسف فى (قرطبة) .

ابتسم الشيخ ، وقال :

ـ حسن .. إنك لم تترك لى فرصة واحدة .

ومال (فارس) على الحكيم ، يسأله فى اهتمام :

ـ وبالمناسبة .. كيف حال (مهاب) ؟

أجابه الحكيم :

ـ إنه فى خير حال ، وأظنه يستطيع مشاركتنا احتفال النصر الليلة .

هتف (فارس) فى سعادة :

ـ إذن فهو بخير .. يا لسعادتى !.. هل تسمع يا (فهد) ؟.. (مهاب) بخير .

والتفت يبحث عن (فهد) ، ثم انعقد حاجباه فى شدة ..

لقد فعل (فهد) ما يفعله عادة ..
اختفى ..
اختفى تمامًا ..

★ ★ ★

« اللعنـة !.. »

هكذا هتف الملك (فرناندو) ، وهو يلقى كأسه فى عنف ، فارتطمت الكأس بالجدار ، وانسكب ما بها من خمر ، فقالت (ايزابيلا) فى صرامة :

ـ هذا لا يليق بالملوك .

صاح بها محنقًا :

ـ اصمتى .. لم أعد أحتمل مواعظك .

هتفت به :

ـ ماذا تقول أيها الملك ؟

صرخ فى غضب :

ـ أقول : إننى سئمت كل هذا .

وبدت عيناه محمرتين ، وهو يستطرد فى مرارة :

ـ هؤلاء العرب الأوغاد كشفوا خطتنا .

اتسعت عيناها فى هلع ؟ وهى تهتف :

ـ ماذا ؟

نهض يسترجع كأسه، ويصب فيها الخمر، وهو يقول :

ـ نعم يا ملكة (قشتالة) و (ليون) .. لقد كشف العرب خطتنا .. ذهبنا إليهم بخمس فرق ، فانقضوا علينا بسبع ، وكادوا يفتكون بنصف جيشنا ، لولا أن انسحب الجميع بأقصى سرعة ، وراحوا يعدون كالخراف .

هتفت فى ارتياع :

ـ يا إلهى !

جرع كأسه دفعة واحدة ، وهو يقول :

ـ كل هذا لأننا نفتقر إلى الجواسيس المهرة .

والتفت إليها ، مستطردًا فى حدة :

ـ هل تعلمين أنهم قاموا بثورة على (جهلان) .. حليفنا الأول ، وانتزعوه من عرشه ، وقضوا عليه ، وكشفوا خطتنا كلها ، دون أن يبلغنا هذا الأمر ، إلا بعد أن حاصر العرب فرقنا الخمس فى (بسطة) .

ارتجفت ، قائلة :

ـ إلى هذا الحد ؟!

قال فى مرارة ، وهو يصب كأسًا أخرى :

ـ نعم .. إلى هذا الحد .. إلى الحد الذى أصبحنا معه عاجزين عن انتزاع مملكة (غرناطة) ، على الرغم من أننا نمتلك الآن ثلاثة أرباع (الأندلس) .

وجرع الكأس الثانية دفعة واحدة ، ثم اقترب من النافذة ، وقال :

ـ ولقد قتلوا (غالا) .

اتسعت عيناها ، وهى تقول :
- قتلوها ؟!
ألقى الكأس فى عنف ، صارخًا :
- نعم .. قتلها هؤلاء العرب .
وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستطرد :
- ومازلت أصرّ على رأيى ، الذى تخالفينه كثيرًا .. إننا لن نظفر بمملكة (غرناطة) ، إلا بعد أن نظفر بذلك الفارس .
غمغمت :
- الفارس الأبيض ؟!
أطلق من أعماق صدره زفرة قوية ، وهو يقول :
- نعم .. فارسهم الأبيض ، مع معلم السلاح ، وذلك الزنجى ، والوزير السابق .. إنه ذلك الفريق ، الذى يحبط خططنا دومًا ، والذى أقسم أن أضع حدًا لأعماله ..
وعاد حاجباه ينعقدان فى شدة ، وهو يضيف :
- ولن يهدأ لى بال ، حتى أضع قبضتى على ذلك الفارس ..
وكان هذا إيذانًا بحرب جديدة ، تخوضها (قشتالة) ضد فارس واحد ..
فارس (الأندلس) .

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

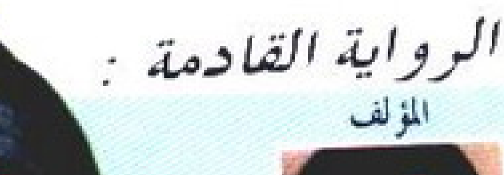
٥

فارس الأندلس

من البطـولات العربيـة
فى أحرج فترة للعرب فى أسبانيا

الهـاربة

- ماسر القشتالية ، التى فرّت من (قرطبة) إلى (غرناطة) ؟..
- كيف أعدّ القشتاليون ضربتهم القادمة ؟.. وكيف ؟
- هل ينجح (فارس) فى التصدّى للقشتاليين ، أم تخذله تلك (الهاربة) ؟
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وعِش مع البطولات العربية ، فى عصر (الأندلس) .



الرمح المكسور

المؤلف



د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الثمن
وما يعادل
فى سائر

